

(*)

المدرسة المستنصرية ببغداد

للمسير كوركيس عواد

ملاحظ مكتبة مديرية الآثار القديمة العامة

١ - تمهيد

تشير التصانيف العربية القديمة ، الباحثة في التاريخ والبلدان والادب ، الى عدد كبير من المواطنين التي انشأها الناس في مدينة بغداد ، خلال العصر العباسي : منها الجوامع ، والمساجد ، والمدارس ، والربط ، والبيمارستانات ، والقصور ، والدور ، والحمامات ، والاسواق ، والخانات ، والمقابر ، وغيرها من المباني الدينية أو المدنية مما يسكن أن يعد بالعشرات بل بالمئات اذا اريد الاستقصاء . ولكن هاتيك الآثار العديدة لم تبق على ما كانت عليه أيام العباسيين ، لان عوامل الزمن ويد الانسان العابث ، قد تصافرت جميعا على محقتها وتدميرها ، فزال جميعها تقريبا من عالم الوجود وامحى أثره . والذي انتهى بنا من ذلك التراث ، نزر خليل المقدار نراه اليوم بحال مشوهة قلقة ، قد دب في أكثره ديب الخراب . ولكنه بالرغم من هذه الحال المؤسفة ، خير دليل على رقي الرياضة في ذلك العصر الزاهر ، وتفنن القوم في تجميل مبانيهم ومغالاتهم في تزويقها وزخرفتها .

وإذا عمدنا الآن الى ذكر المباني العباسية القائمة في مدينة بغداد ذاتها ، ألفيناها تقل عن أصابع اليدين عدا ، من ذلك : المدرسة المستنصرية ، والقصر العباسي في قلعة بغداد ، وقبر معروف الكرخي ، وضريح الشيخ عمر السهروردي ، وباب الظفرية المعروف بالباب الوسطاني .

وبوسعنا القول دون ما تردد ، ان أعظم هذه المباني أثرا ، وأبعدها شهرة ، هي « المدرسة المستنصرية » التي عقدنا هذا البحث لدرس آثارها القائمة اليوم ، واستقصاء أخبارها السالفة مما وجدناه مثورا في بطون الكتب المختلفة .

٢ - تسمية المدرسة

عرفت هذه المدرسة بـ « المستنصرية » ، باسم بانيتها « المستنصر بالله أبي جعفر المنصور » ، الخليفة العباسي السابع والثلاثين ، الذي دامت خلافته من سنة ٢٢٣ الى ٢٤٠ للهجرة (= ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) .

(*) الاشكال التي تزين عدا البحث ، من تصوير مديرية الآثار القديمة العامة ، ما عدا الشكل ٢ ، ٣ ،

واللوح ٢ أ - ب ، ٧ أ - ب .

وتسمية المدارس ، في العصور الاسلامية ، بأسماء مؤسسيها ، كان من الامور الشائعة المعروفة :
 فهناك مثلا المدرسة « النظامية » التي فرغ من بنائها الوزير نظام الملك (١) ببغداد سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ م) .
 والمدرسة « التاجية » (٢) ببغداد ، المنسوبة الى تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسرو
 فيروز ، المتولى لتدبير دولة ملكشاه بعد الوزير نظام الملك . والمدرسة « الشرايبة » (٣) التي انشأها
 شرف الدين اقبال الشرايى بواسطة ، سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) . وغير ذلك من المدارس التي ليس
 من غرضنا ذكرها في هذا المقام .

٣ - نبذة في سيرة مؤسسها

غنى عن البيان ، ما كان لمؤسسها العظيم من حميد الصفات وجميل الذكر في التاريخ . فهو
 الخليفة « أبو جعفر المنصور المستنصر بالله » العباسي ، ابن الظاهر بأمر الله ، وحفيد الناصر لدين الله .
 ولد المستنصر سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه في ثالث عشر شهر رجب
 سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . فنشر العدل بين رعاياه ، وقرب اليه أهل العلم والدين ، وأنشأ المساجد
 والمدارس والمؤسسات والخانات للسابلة ، وغير ذلك من المرافق العمرانية العامة ، التي سطرت اسمه
 بين الخالدين .

والذي يؤسف عليه ، ان غير واحد من « نيك المآثر » قد سطت عليه يد الدهر فقوضته وأزالت معالمه .
 ولم يتبق منها اليوم الا بعضها ، الذي ينطق بعظم صاحبه . وفي طليعة ذلك « المدرسة المستنصرية »
 ببغداد . وثانيها « قنطرة حربي » (٤) ، وهي على نحو من تسعين كيلومترا من شمال بغداد ، تقوم فوق
 عقيق نهر « دجيل » المندرس ، بتخاذة طريق السيارات المستدة بين بغداد وسامراء . ويؤخذ من الكتابة
 المدونة في جهتي هذه القنطرة ، أن المستنصر أقامها سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) .

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان (١ : ٢٠٢ طبعة بولاق الاولى سنة ١٢٧٥ هـ) .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي (١ : ٨١٠ طبعة وستفيلد في ليبك) .

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في ائمة السابعة لابن الفوطى (ص ٧٦ طبعة الدكتور

مصطفى جواد ببغداد سنة ١٣٥١ هـ) .

(٤) عن هذه القنطرة ، راجع :

أ - Memoirs by Commander James Felix Jones (Bombay 1857;
 pp. 251-256).

ب - الى عكبرى وقنطرة حربي : لمصطفى جواد (لغة العرب ٨ « ١٩٣٠ » ص ٣٢٢ - ٣٢٣) .

ج - جسر حربي : لمديرية الآثار القديمة في العراق (بغداد ١٩٣٥ وعى رسالة بالعربية ، وبالانكليزية) .

ومن مآثره أيضاً « خان الخرنيني » (٥) الذي ترى اطلاله الى اليوم على يمين دجلة بين تكريت والبلايق ، لنذهب الى الموصل .

دامت خلافة المستنصر زهاء سبع عشرة سنة ، أى الى وفاته في سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، فتولى الخلافة من بعده ، ابنه المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس ببغداد .

وللمستنصر أخبار حسان كثيرة لا يسعنا استيعابها في هذا البحث . ولابن الساعي المؤرخ البغدادي الشهير ، كتاب قائم برأسه في حياة هذا الخليفة وسمه بـ « اعتبار المستنصر في أخبار المستنصر (٦) » لعبت به يد الزمن فلم ينته اليانا . ومع ذلك ، فان المؤرخين الاقدمين ، غير ابن الساعي ، قد وفوا حياة المستنصر حقها من البحث في تأليفهم المختلفة ، فليراجعها من اراد التبسط في هذا الموضوع (٧) .

(٥) الفخرى لابن الطقطقى (ص ٣٨٠ طبعة أهلورد في غوطا سنة ١٨٦٠) ؛ والاب انستاس مارى الكرملى في مجلة المشرق (٨ « ١٩٠٥ » ص ٦٧٤ - ٦٧٥) .

(٦) تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار لابن رافع السلامى (طبعة المحامى عباس العزاوى ، بغداد ١٩٣٨ ؛ ص ١٣٨) وذكره كل من الصغدى (الوافى بالوثائق ١ : ٥١ طبعة رتر في استانبول سنة ١٩٣١) . والحاج خليفة في كشف الظنون (٣ : ٦٤٠ طبعة « فلوجل » باسم « سيرة المستنصر » . راجع بهذا الصدد :

- ١ - الكامل فى التاريخ لابن الاثير (١٢ : ٢٩٩ طبعة تورنبرغ فى ليدن) .
- ٢ - بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء لابن أبى السرور الروحى (ص ٦٨ القاهرة ١٩٠٩) .
- ٣ - مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (٨ : ٤٣٤ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ طبعة جويت فى شيكاغو ١٩٠٧) .
- ٤ - تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ٤٢٤ - ٤٢٥ : طبعة صالحانى فى بيروت ١٨٩٠) .
- ٥ - الفخرى (ص ٣٨٠ - ٣٨٢) .
- ٦ - خلاصة الذهب المسبوك لعبدالرحمن الاربل (ص ٢١١ - ٢١٣ بيروت ١٨٨٥) .
- ٧ - الحوادث الجامعة (ص ١٥٥ - ١٥٨ ، ١٧١ ، ١٧٣) .
- ٨ - تاريخ أبى الفداء (٣ : ١٣٧ و ١٧١ القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- ٩ - البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير (١٣ : ١٥٩ - ١٦٠ طبع القاهرة) .
- ١٠ - تاريخ ابن خلدون « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (٣ : ٥٣٦ طبع بولاق) .
- ١١ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن عمري بردى (٦ : ٣٤٥ - ٣٤٦ طبعة دار الكتب المصرية) .
- ١٢ - تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٣٠٦ - ٣٠٨ القاهرة ١٣٥١ هـ) .
- ١٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (٥ : ٢٠٩ طبع القاهرة) .
- ١٤ - أخبار الدول وآثار الاول للفرمانى (ص ١٨٠ طبع حجر ببغداد سنة ١٢٨٢ هـ) .

٤ - موقعا

لا نجانب الصواب اذا قلنا ، ان كل المدارس التي انشئت في بغداد في العصر العباسي ، قد امتحت آثارها وأصبحنا لا نعرف أين كانت مواقعها بوجه التحقيق !
الا ان هذا القول لا ينطبق على « المدرسة المستنصرية » ، التي ما زالت بقاياها شاخصة الى يومنا هذا .

تقوم هذه المدرسة في الجانب الشرقي من بغداد ، على ضفة دجلة اليسرى ، قريبا من رأس الجسر الشمالي المسمى بـ « جسر المأمون » ، من جهته السفلى ، على قيد عدة أمتار منه .
تمتد جهة المدرسة المستنصرية على ضفة النهر ، مسافة يبلغ طولها اليوم زهاء ١٠٥ أمتار .
فحدودها الغربية ثابتة تنتهي بنهر دجلة (انظر اللوح ١-أ) . وأما سائر حدودها فيمكن تعيينها اليوم بشيء من الصعوبة ، بالنظر الى ان بعض العمائر المستحدثة قد لاصقتها او داخلت مرافقها ، فضاعت بذلك بعض المعالم من حدود المدرسة : الشرقية والجنوبية ولا سيما الشمالية . فنجد هناك الاسواق والحوانيت والمخازن قد زاحمتها في رفعتها : كسوق الرياح وسوق دانيال وسوق المولاخانة وقهوة المميز (١) ، وغير ذلك من المباني المحدثه بمرور الايام .

٥ - تأسيسها

ذكر ابن الفوطي (١) ، ان البدء بتأسيس هذه المدرسة كان في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) . وكان المستنصر بالله أمر بانشائها . وقد تولى عمارتها استاذ الدار مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي (١) .

- (٨) تاريخ مساجد بغداد وآثارها للأوسى (ص ٩٨ الحاشية ١) ؛ ومقال يعقوب سر كيس « المدرسة المستنصرية » في مجلة لغة العرب (٦ « ١٩٢٨ » ص ٣٥٧ - ٣٥٨) .
(٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٣ - ٥٤) .
(١٠) هو الوزير الذي اشتهر بذكره في أيام سقوط بغداد بيد المغول . أما قوله « استاذ الدار » فاصطلاح مركب من لفظتين فارسيتين . احداعما : استد ومعناها الاخذ . والثانية : دار ومعناها المسك . فهو لقب من يتولى قبض مال الخليفة وصرفه . وقيل ان موضوعها « التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من الطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وغير ذلك » . وغذا المعنى الاخير هو المراد في عصر المستنصر بالله .
راجع تفاصيل ذلك في رحلة ابن جبير في ذكر مجد الدين بن صاحب « ص ٢٢٧ » طبعة دي غوية ، وصحيح الاعشى للقلقشندى (٤ : ٢٠ : ٥٥ : ٥٧ : ١١٠ : ١٦٨ - ١٧٠) والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (ص ٩٦ - ٩٨) .

ولا حاجة بنا الى القول ، ان المستنصر بالله لما اعترم على انشاء هذا الصرح العلمي الخالد ، لا بد انه استقدم له أمهر المهندسين وأحذقهم ، فاستفرغوا ما في وسعهم في وضع قياساتها وتخطيط أبعادها . ثم أكب البناؤون والصناع على اقامة البناء وزخرفته وتجميله بالكتابات ، واستمروا على ذلك بضع سنين ، حتى تكاملت في جمادى الآخرة من سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) .

٦ - تخطيطها

من يلق نظرة عامة على هذه المدرسة ، يجدها مستطيلة الشكل ، طولها يوازي مجرى دجلة ، وهو يبلغ الآن ٨٠ و ١٠٤ متراً (١) ، وعرضها من الجهة الشمالية ٢٠ و ٤٤ متراً ، ومن الجهة الجنوبية ٨٠ و ٤٨ متراً . فتكون مساحة المدرسة ، بالاستناد الى هذه الأبعاد ٤٨٣٦ متراً مربعاً . هذا باستثناء « الرصيف » الحالى الذى يستد حيلاتها على النهر الى مسافة معدّلها ١١ و ٨٠ متراً . فمساحة هذا الرصيف تبلغ ٢٠ و ١٢٢٧ متراً مربعاً .

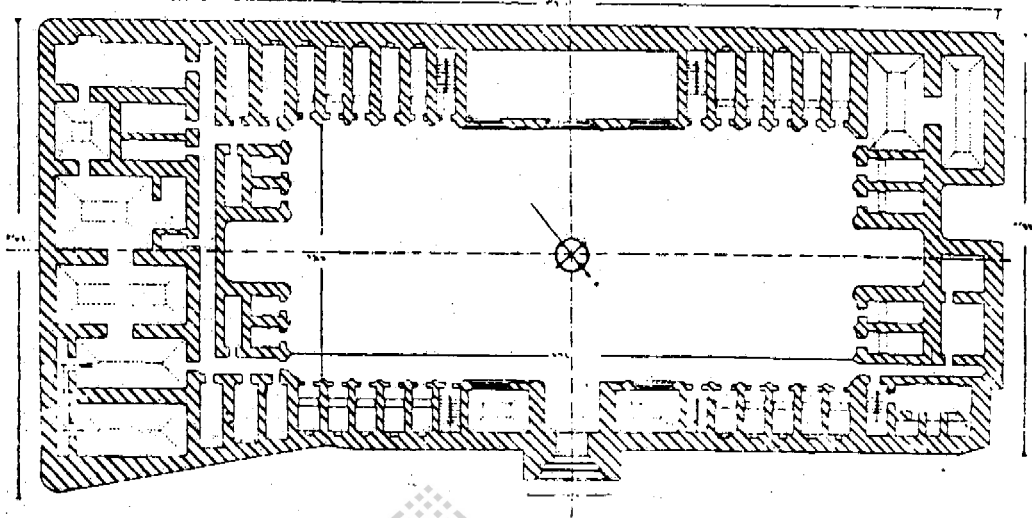
وقد روعى فى بناء هذه المدرسة ، أن تكون مشتملاتها كإطار يحيط بها . فالحجر والغرف ، والقاعات ، والأواوين والأروقة ، وغير ذلك من أجزائها تحف بها من جهاتها الأربع ، ويتوسطها صحن طويل فسيح ، أبعاده ٤٠ و ٦٢ x ٤٠ و ٢٧ متراً (انظر المخططات فى الأشكال ١ و ٢ و ٣) . ان الرقعة المغطاة بالبناء من هذه المدرسة ، تبلغ مساحتها نحو ٣١٢٦ متراً مربعاً . فهى مما تستوعب كل مستلزمات المدرسة : كحجر الدرس والنود والطعام وخزانة الكتب والأدوية والمخازن الأخرى والمطبخ وغير ذلك مما سنحىء بذكره .

تألف المدرسة من طبقتين ، فى كل منهما طائفة كبيرة من الغرف والقاعات . أما « الأواوين » فارتفاعها بارتفاع الطبقتين معا (انظر الموح ١٢) .

ولا يمكننا أن نعين فى الوقت الحاضر ، ارتفاع البناية بطبقتها ، بالنظر الى ان مستوى فرش « أرضية » المدرسة قد تغير كثيرا عما كان عليه فى أيام عازها . فالتربة والأوساخ قد تراكمت وتكدست فى كل مكان منها ، حتى أضحي تعيين المستوى الحقيقى لارض المدرسة متعذرا ما لم يجر تنظيفها بوجه يعيدها الى سابق حالها .

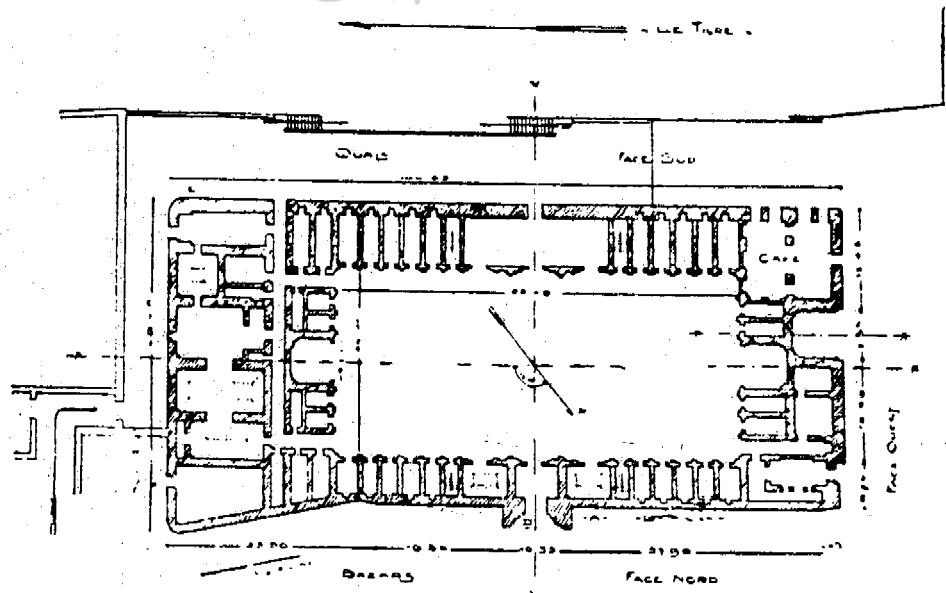
ومهما يكن من أمر ، فان الارتفاع التقريبى للبناية بطبقتها معا ، يبلغ زهاء عشرة أمتار .

(١١) أشكر السيد محمود على ، المهندس فى مديرية الآثار القديمة العامة ، على ما أمدنى به من قياسات



(الشكل ١) المستنصرية - مخطط الطبة السفلى من المستنصرية

مركز تحقيقات كميوتور علوم اسلامی



(الشكل ٢) المستنصرية - مخطط الطبة السفلى من المستنصرية (عن فيوله)

٧ - افتتاحها

كان الشروع في تشييد المستنصرية سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، وتكاملها في جمادى الآخرة سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) كما ذكرنا سابقا . فليد تكملت « ركب نصير الدين (أبو الازهر أحمد) ابن الناقد نائب الوزارة في يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة وقصد دار الخلافة واجتاز بها الى دجلة ، ونزل في شبارة (١٢) من باب البشري (بدار الخلافة أيضا) مصعدا الى الدار (١٣)

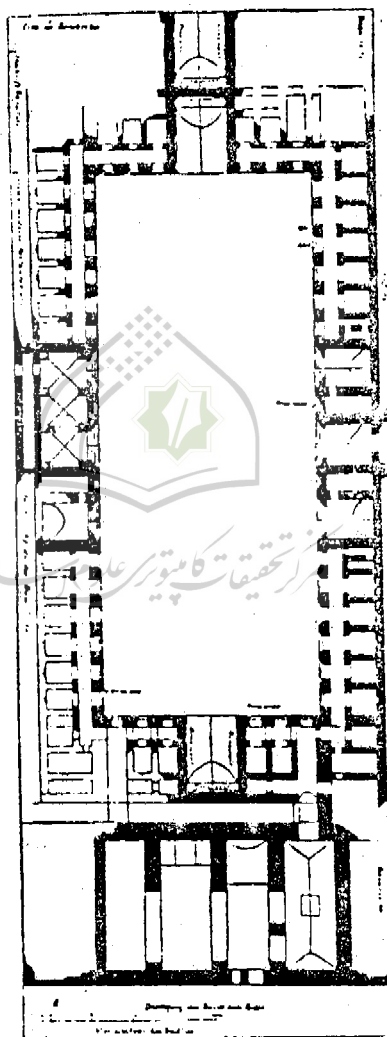


Abb. 109. Baghdad, Mustansiriyyah.

(الشكل ٣) المستنصرية - مخطط الطليسة العليا من المستنصرية
(عن هرتسفلد)

- (١٢) الشبارة : ضرب من السفن النهرية في العراق ، أيام العباسيين .
- (١٣) ستتكلم على هذه « الدار » في موضوع « مرافق المدرسة » .

المستجدة المجاورة لهذه المدرسة ، وصعد إليها وقبل عتبتها ودخلها وطاف بها ودعا لملكها . وكان معه استاذ الدار مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي ، وهو الذي تولى عمارتها (كما أوامنا إليه) . ثم عاد متوجها الى داره في الطريق التي جاء بها ، وخلق على استاذ الدار وعلى أخيه (علم الدين) أبي جعفر (أحمد بن العلقمي) وعلى حاجبه عبدالله بن جمهور وعلى المعمار والفراشين المرتبين في الدار المذكورة المستجدة وعلى مقدمي الصناعات . ونقل في هذا اليوم الى المدرسة من الربعات (١٤) الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حملة مائة وستون حمالا ، وجعلت في خزانة الكتب (١٥) . وتقدم الى (١٦) الشيخ عبدالعزيز (بن دلف الناسخ الصوفي) شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة واثبات (١٧) الكتب واعتبارها ، والى ولده العدل ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضا . فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب مفصلا لغونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناؤها .

« وفي بعض هذه الايام ، حضر الخليفة هناك ، وحضر الشيخ عبدالعزيز بين يديه وسلم عليه ، وأعقب دعاه بأن تلا قوله تعالى : « تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا » (١٨) . فبدا خشوع الخليفة وتقاطرت دموعه ، (١٩) .

وما أوردنا ذكره من الاخير ، لم يكن في الحقيقة الا تمهيدا لحفلة افتتاح المدرسة افتتاحا رسميا ، يناسب مقام هذه المدرسة . وقد وصف ابن الفوطي هذه الحفلة وصفا رائعا بقوله :

« وفي يوم الخميس خامس شهر رجب (٦٣١ هـ = ١٢٣٣) ، حضر نصير الدين نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغزباء الى المدرسة ، وتخيز لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفسا ، ورتب لها مدرسان وناثبا لتدريس . أما المدرسان فمحيي الدين أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضالان الشافعي ، ورشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني

- (١٤) الربعات ، واحدها الربعة ، وعى على ما في تاج العروس (٥ : ٣٤٣) بمعنى صندوق فيه أجزاء المصحف الكريم ، وهي مولدة لا تعرفها العرب ، بل عى اصطلاح أهل بغداد .
- (١٥) انظر الفصل المعنون « خزانة الكتب » من هذا البحث .
- (١٦) تقدم الى ، بمعنى : أمر
- (١٧) اثبات الكتب أي كتابة أسمائها في دفتر أو ثبت .
- (١٨) سورة الفرقان (الآية ٩) .
- (١٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٣ - ٥٥) .

الحنفي ، وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء وطرحة كحلية وأمطى بغلة بمركب جميل وعدة كاملة . وأما النائبان فجمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن يوسف ابن الجوزي الحنبلي ، نيابة عن والده لانه كان مسافرا في بعض مهام الديوان ، والآخر أبو الحسن علي المغربي المالكي ، وخلع على كل واحد منهما قميص مصمت وعمامة قصب ، ثم خلع على جميع المعيدين ، وهم لكل مذهب أربعة ، خلعا بالحكاية ، ثم خلع على المتولين للعمارة والبناء والحاشية ، وعلى المعينين للخدمة بخزانة الكتب ، وعم الشمس على بن (يوسف بن سعد) الكتبي الخازن ، والعماد علي بن الدياس المشرف ، والجمال ابراهيم بن حذيفة المناول . ثم مد سباط في صحن المدرسة أجمع ، فكان عليه من الاشربة والحلواء وأنواع الاطعمة ما يجاوز حد الكثرة (٢٠) ، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويرا ، ثم افيضت الخلع على الحاضرين من المدرسين ومشايخ الربط والمعيدين بالمدارس والشعراء والتجار الغرباء ، ثم اشد الشعراء المدائح فيها وفي منشئها . فمن أورد العدل أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد المدائني التقي الشافعي :

ما مثل الفلك العظيم لمبصر	في الارض قبل أيلة المستنصر (٢١)
هذا بناء معرب عن قدرة	رفعت قواعده بفعل مطهر
حدث به الارض السماء ولم يزل	حسد الفضائل في طباع النضر
انظر تجد نظم الثريا في ذرى	شرفاته وضياء نور المشتري
ضحك الزمان وذاك بعد عبوسه	ورأى الصواب وذاك بعد تحير
فالافق بين مفضض ومذهب	والجو بين مكوفر ومعبر
والارض حاسرة القناع كأنها	خود تبرج في رداء أخضر
ترهو بما عمس الخليفة فوقها	علما لاحكام البشر المنذر
بالجانب الشرقي بالشاطي الذي	هو طورسنا كل صاحب منبر

ومنها :

ما حق دجلة أن تفوه بلفظة	قهزت وأي مساجل لم يقهر
غلب العطاء الماء فيها واتسنى	سدا يفوق صناعة الاسكندر

(٢٠) قال ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ : ١٤٠) بهذا الصدد : « وعمل سباط عظيم بها (أي بالمستنصرية) أكل منه الحاضرون ، وحمل منه الى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام » .
 (٢١) هذا سطر من المؤرخ فان عمده القصيدة انشئت في افتتاح ساعة المستنصرية وايوان فلکها لان فيها تمثيل الفلك العظيم ونظم الثريا ونور المشتري ، وتأخر تكاملها عن زمان تكامل المستنصرية : قاله مصطفى جواد

ان أصبحت بحسرا فان بنائه
 وضع الامام بها اساس بنائه
 قصرا ومدرسة لمن طلب الغنى
 هي جنة الفردوس يجري تحتها
 حصابؤها در النظام وتربها
 أضحى سليمان الزمان وأهله
 لبس الغبي بها شهامة ماهر
 لم تخل من حبر وشيخ فاضل
 قد كانت الفقهاء قبل بنائها
 فرقا يشق على المرید طلابها
 فالیوم قد جمعت امور الدين في

بافاضة المعروف خمسة أبحر
 والموج بين مججم ومزجر
 أو رام شأو العالم المتبحر
 من ماء دجلة ماء نهر الكوثر
 مسك الجنوب وطينها كالغبر
 مستخدما فيها بخنة عبقر
 وغدا المقل مزاحما للمكشر
 يروي الحديث وساجد ومعفر
 في كل قطر واحد لم يذكر
 في الشرع والمطلوب كالتعذر
 ارجائها وازيل عذر المقصر

وأورد بعده جماعة كثيرة ، ثم ذكر المدرسان المتقدم ذكرهما كل واحد منهما على سنده ،
 والثابان كل واحد منهما تحت السدة ، ثم قسمت الأرباع فسلم ربع القبلة الأيمن إلى الشافعية ،
 والربع الثاني يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمتد الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يسرة
 الداخل للمالكية ، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجرى لهم الجراية الوافرة ، عملا بشرط الواقف .
 ثم نهض نصير الدين وأرباب الدولة والحاضرون . وكان يومئذ الخليفة جالسا في الشباك الذي
 في صدر الأيوان ، ينظر جميع ما جرت الحال عليه « (٢٢) » .

٨ - مرافق المدرسة

احتوت المستصرية كل ما كانت تقتضيه الحاجة من المباني والتشكيلات : فهناك الصحن ،
 تحيط به الأروابن والبيوت والغرف المختلفة والأروقة . وسنفرده لكل من ذلك نبذة تفي بالغرض
 المطلوب من هذا البحث ، فيتألف من جميع هذه النبد وصف شامل لكل هاتيك الأقسام -

١ - الصحن :

في المباني الشرقية الكبيرة ، كالمندارس والجوامع والقصور والخانات وغيرها ، يراعى في
 الحجر والفتاعات وسائر المسقفات ، أن تكون متجاورة ، بحيث يقوم من مجموعها نطاق مربع أو
 مستطيل الشكل ، يتوسطه صحن .

وهذا ما كان يشاهد في بناية المستنصرية (انظر المخططات في الاشكال ١ و ٢ و ٣) . ففيها صحن مستطيل ، فسيح الأرجاء ، يكسب المدرسة روعة وجمالا . ويبلغ طول الصحن ٤٠ و ٦٢ مترا ، وعرضه ٤٠ و ٢٧ مترا . فمساحته اذا كانت نحو ١٧١٠ أمتار مربعة .

ان هذا الصحن ، قد سقفته دائرة الكمرات بسقف من الجنكو معدني ساذج لتقى البضائع التي تخزنها فيه من الامطار وغيرها (انظر اللوح ١ ب) .

ولقد كان هذا الصحن في أيام عز المدرسة ، مطبقا بالآجر ، تتوسطه بركة (٢٣) يأتي مأؤها من دجلة فيجري تحت الارض ، فاذا انتهى إليها خرج منها الى المزملة التي يأتي عليها الكلام في الفقرة (٦) من هذا الفصل .

والمؤسف حقا ، انه لا يرى اليوم شيء من تخطيط هذا الصحن ، بل ان الاتربة والنفايات قد علته . فمستوى الصحن الاصلى لا يمكن أن يعرف بوجه صحيح ما لم ينظف من هذه الاتربة كما اشرنا اليه في سالف قولنا .

وقد أشار ابن الفوطي في حفلة افتتاح المستنصرية ، انه « مد سماط في صحن المدرسة أجمع ، فكان عليه من الاشربة والحلواء وانواع الاطعمة ما يجاوز حد الكثرة ، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويرا ، (٢٤) .

وذكر أيضا ان قد جدد تطبيق صحن المدرسة ، في سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) (٢٥) .

ومن غريب الاخبار التي ساقها ابن الفوطي ، فيما له علاقة بصحن المستنصرية ، قوله في أحداث سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) « فيها ، سقط بعض الفقهاء بالمدرسة المستنصرية من غرفة الى صحن المدرسة ، فمات في يومه ، (٢٦) .

٢ - الاواوين

كان في المستنصرية أربعة أواوين ، خص كل منها بمذهب من المذاهب الاربعة . وقد بولغ في اتقان بنائها وتجويد زخرفتها بالزخارف الهندسية والنباتية الدقيقة ، مما يدل على علو كعب القوم في الرياسة والحفر . وان نظرة واحدة الى ما تبقى من زخارف هذه الاواوين (انظر اللوح

(٢٣) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٥) .

(٢٤) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .

(٢٥) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٥) .

(٢٦) الحوادث الجامعة (ص ٤٢٥ - ٤٢٦) .

٤ أ - ب ، واللوح ٥ ، واللوح ٦ - أ) تكفى لايضاح ما ذكرنا ، لانها خير دليل على حسن الصنعة وجمال الفن .

ان ارتفاع سقف كل واحد من هذه الاواوين ، يبلغ ارتفاع طبقتى البناء معا . فهو اذا يبلغ زهاء تسعة أمتار . أما عرض فتحة الايوان ، فتبلغ ٦ أمتار ، وطوله ٧ر٨٠ مترا .

لقد سدت فتحة الايوان الجنوبي في بعض السنوات المتأخرة (اللوح ١ - ب) بفقد بذلك جماله وحجبت عن الانظار معالم الزخرفة النفيسة التي يزدان بها صدره وسقفه ، تلك الزخرفة التي ما زال أكثرها لم ينله التشويه .

وفي سنة ١٩٣٥ رمم هذا الايوان بعض الترميم ، ولكن ذلك لم يكن بالدواء الناجع للداء الذي ابتلى به هذا الاثر !

أما الايوان الشمالي فقد تشعثت فتحته ، وأصابه شيء كثير من التلف ، واختفت زخارف صدره وسقفه بالقشرة الجصية التي كسبت بها في عهد متأخر .

أما الايوانان الآخرا ، فمعالهما مشوشة ، إلى حد بعيد .

ومما يشبه الاواوين في شكله وليس منها ، مدخل المدرسة (انظر اللوح ٣ - ب) . فهو من السعة بما يمكن عدة ايوانا صغيرا . ولقد كان سقفه من خرفا ، ولكن هذه الزخرفة قد اختفت مع الاسف تحت طبقة الجص الذي جصص به .

وهناك ايوان آخر ، يعد من مفاخر الفن الاسلامي ، يلاصق صدره الجهة الشمالية للمدرسة . فهو بهذا الاعتبار لا يعد من اواوين المدرسة ذاتها ، وانما هو ايوان « الدار المجاورة » التي مرت الاشارة اليها ويأتي كلامنا عليها مفصلا .

ومن نكد الدهر ، أن يكون هذا الايوان حتى سنة ١٩٣٤ مؤجرا لاحد الخبازين الذين لا يهمهم من أمر الآثار شيء ، فتسب فيه فرسه ! وكأن هذا الاثر النفيس لا يصلح الا أن يتخذ منه فرن ، فكان من نتائج ذلك أن شوّهه الدخان وغبار الطحين ، وسود ما فيه من الزخارف العريسة الجميلة (اللوح ٤ أ - ب ، واللوح ٥) .

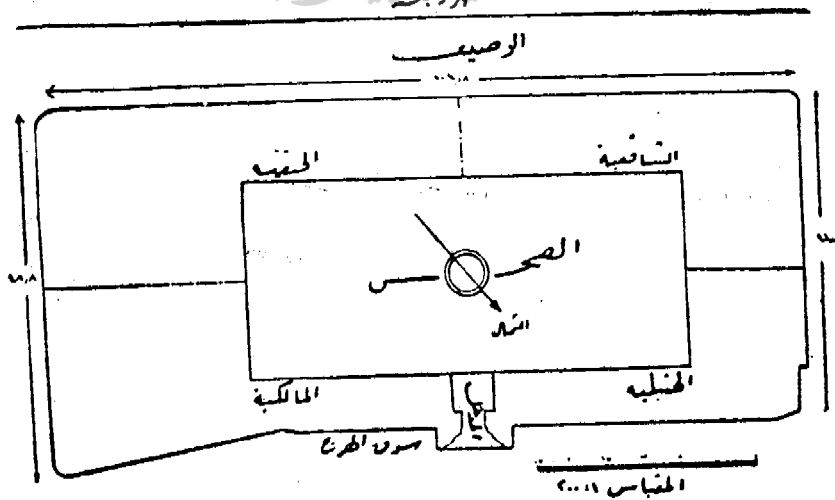
وبعد أخذ ورد طويلين بين مديرية الآثار القديمة ومديرية الاوقاف ببغداد ، وافقت الثانية ، بكونها المتولية على المستنصرية على اخراج هذا الخباز من الايوان ، ولكنها عادت فأجرتة اسكافا ، وما زال يشتغل فيه إلى الآن !!

في كلام ابن بطوطة على الجانب الشرقي من بغداد ، وصف طريف لما شاهده هذا الرحالة في أواوين المستنصرية سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) ، فقال ان « بها المذاهب الاربعة ، لكل مذهب ايوان ، فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابس ثياب السواد معتما ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يسليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة » (٢٧) .
 فهذا ما كان يجري في أواوين المستنصرية في أواسط المائة الثامنة للهجرة ، اذ لا يخفى ان وفاة ابن بطوطة كانت في سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) .

وقد أشار ابن الفوطى الى موقع أرباع المذاهب الاربعة في المدرسة بقوله : « ثم قسمت الارباع : فسلم ربع القبلة الايسر الى الشافعية والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمينا الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية » (٢٨) .

ومعنى هذا ، ان أبناء المذهب الشافعى سلم اليهم الربع النهري الشمالى من المدرسة وهو المطل على دجلة . وأبناء المذهب الحنفى سلم اليهم القسم النهري الجنوبى . وأخذ الحنابلة القسم الجنوبى المجاور للقسم الشمالى الآن فى سوق النهريج ، والمالكية القسم الجنوبى منه ، عن ما تراه فى المخطط (الشكل ٤) .

وببدو مما ساقه ابن الفوطى ، ان فى صدر أحد هذه الاواوين شبكا . قال فى خبر فتح



(الشكل ٤) المستنصرية - أرباع المذاهب الاربعة فى المستنصرية

(٢٧) رحلة ابن بطوطة (٢ : ١٠٩ طبع باريس) .

(٢٨) الحوادث الجامعة (ص ٥٨) .

المستنصرية سنة ٦٣١ (١٢٣٣ م) : « وكان يومئذ الخليفة (المستنصر) جالسا في الشباك الذي في صدر الايوان ، ينظر جميع ما جرت الحال عليه » (٢٩) .

وأشار في الدعوة التي عملت سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) للامير اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، انه « حضر وجلس على ايوانها » (٣٠) .

وفي تلك السنة أيضا عملت للملك الناصر ناصر الدين داود الايوبي ملك دمشق دعوة في المستنصرية ، فحضر و « جلس على طرف ايوانها الشمالي ، ووقف مماليكه وأصحابه في ربحي المالكية والحفنية » (٣١) .

وفي سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، عملت في المستنصرية دعوة نالته لنورالدين ارسلان شاه بن عماد الدين زنكي صاحب شهرزور ، « فحضر اليها وجلس على طرف ايوانها الصغير » (٣٢) .

٣ - البيوت والغرف

في كل من طبقتي المستنصرية ، بيوت وغرف عديدة متجاورة ، بنيت للدرس ولسكني الطلبة ولغير ذلك من الأغراض المدرسية . ولم ينوه المؤرخون بعدد هذه الحجر والغرف ، ولكننا اذا عبقنا الباقي منها وأحصيناه ، وجدناه لا يقل عن مائة حجرة وغرفة ، بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة . من هذه الحجر والغرف ، اثنتا عشرة قاعة كبيرة ، ارتفاعها ارتفاع طبقتي البناية معا . أما البيوت الصغيرة فهناك ٣٩ بيتا في الطبقة السفلى ، ومثلها من الغرف في الطبقة العليا . وفي المدرسة غرف نصف متهدمة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة .

ان قسما من أبواب حجر الطبقة السفلى قد سد أخيرا . ويلاحظ أن عدة من هذه الابواب يعلوه زخرفة ، وفوقها « سكة » من الآجر وعلوه ذلك زخرفة هندسية على ما ترى توضيحه في اللوح ٢ - ب .

(٢٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٨) .

(٣٠) الحوادث الجامعة (ص ٨١) .

(٣١) الحوادث الجامعة (ص ٧٨) .

(٣٢) الحوادث الجامعة (ص ٨٩) .

٤ - الرواق :

في المستنصرية رواق زالت بعض معالمه . والرواق سلسلة من العقادات تلاصق وجوه بيوت المدرسة من جهة ، وتطل على صحنها من الجهة الأخرى ، على نحو ما يرى في كثير من المباني في العراق وسورية ومصر وغيرها من الأقطار .

وكان هذا الرواق يسترعى انتباه زائري المدرسة . فإن الأمير ركن الدين اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، في مدة إقامته ببغداد ، عسكت له سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) دعوة في المدرسة المستنصرية ، « فحضر وجلس على ايوانها ، وقرأ القراء ، وذكر المدرسون الدروس ، ثم طيف به في رواقها » (٣٣) .

وقد أصيب هذا الرواق بحادث سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . فقال ابن الفوطى ان في هذه السنة « وقعت صاعقة في شباط على الرواق بالمدرسة المستنصرية ، فشعثت منه موضعاً » (٣٤) .

٥ - المسناة :

المسناة ، وتجمع على مسنيات : لفظة كانت شائعة الاستعمال في العصر العباسي ، وهي ما زالت معروفة الى يومنا هذا بين أكثر العراقيين ، تلفظ عندهم « مسناية » (٣٥) .

ولما كانت المدرسة المستنصرية مبنية على دجلة ، كان لابد لها من مسناة رصينة البنيان تقيها شر طغيان النهر ، وتمنع عنها تسرب مياهه الى داخلها . فهي من مستلزمات الابنية التي تطل على المياه . حتى لقد ذكر التوحيدى في معرض التنديد قول من قال « . . . ويا قصر بلا مسناة ! » (٣٦) لا نعلم بوجه التأكيد كم كان امتداد هذه المسناة في جبهة النهر ، وكم ضخمتها ؟ ومما لا شك فيه انها كانت بطول المدرسة ، مع زيادة احتياطية من أعلى البناية ومن أسفلها .

ان المسناة التي أقيمت في زمن المستنصر ، لم تبقى على حالها ، بل تهدمت وبلت بفعل المياه وكروور السنين . وهذه المسناة المكيئة البنيان التي نراها اليوم انما هي محدثة (انظر اللوح ١٢ - ب)

(٣٣) الحوادث الجامعة (ص ٨١) .

(٣٤) الحوادث الجامعة (ص ١٠٠) .

(٣٥) انظر مقال « الدار العزبية ببغداد » المنشور في بضعة أعداد من مجلة « الثقافة » . المراجعة في

٥ (١٩٢٣) العدد ٢٢٦ ، ص ٤١٥ .

(٣٦) الامناع والمؤانسة لابي حيان التوحيدى (٢ : ٦٠) .

٦- المزملة

مدرسة عظيمة كهذه ، مطلة على دجلة ، لا بد أن يتوفر فيها الماء الحسن الذي يفى بحاجاتها المختلفة ، وفي ضروريات هاتيك الحاجات ماء الشرب .

لقد كان في المستنصرية « زملة » (٣٧) ، أورد ذكرها ابن الفوطى بقوله :

« فيها (أى فى سنة ٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م) تقدم علاء الدين صاحب الديوان بعمل دولاب تحت مسناة المدرسة المستنصرية ، يقبض الماء من دجلة ويرمى الى زملتها ، ثم يجرى تحت الارض الى بركة عملت فى صحن المدرسة ، ثم يخرج منها الى زملة عملت تجاه ايوان الساعات خارج المدرسة ، وجدد تطبيق صحنها وتبنيدها . وكان المتولى لذلك شمس الدين حميد الخراسانى صدر الوقوف » (٣٨) .

وكان لهذه المزملة من يتعهد شؤونها ، فى مقابل راتب معلوم يتقاضاه . فقد أورد بعض مؤرخى بغداد ، فى ترجمة محمد بن يوسف بن عبدالله بن محمود الجزرى ثم المصرى الشافعى الفقيه النحوى الخطيب المعروف بابن الحشاش ، المولود سنة ٦٦٧ هـ (١٢٣٩ م) ، انه « دخل المستنصرية فشرّب من المزملة ، فلما فرغ قال للذى فيها ، وكان عليه بزة : حاشاكم أو ما هذا معناه ، فقال شخص : لا تقل له هكذا ، هذا له خمسة دنانير على سقى الناس ، أو ما هذا معناه » (٣٩) .

٧- الحمام

كان من جملة مرافق هذه المدرسة حمام (٤٠) خاص بالفقهاء ، ولمن يتسبب الى المدرسة . ولا نعلم كيف كانت هذه الحمام من داخلها ، لان آثارها قد زالت كما زالت كل الحمامات القديمة البغدادية .

(٣٧) قال الزبيدى فى تاج العروس (٧ : ٣٦١ مادة : زم ل) : « والمزملة ، كمظمة : التى يبرد فيها الماء من جرة أو خابية خضراء ، قاله المطرزي فى شرح المقامات ، وهى لغة عراقية يستعملها أهل بغداد ، كما فى العباب » ١ هـ .

ونضيف الى ما تقدم شرحه ، ان المزملة ، ما زالت معروفة فى بعض انحاء العراق ، غير بغداد ، كالموصل . وهى هناك حوض كبير ، بهيئة متوازي المستطيلات ، منقور من الصخر ، يملأ من الماء . وهذا النوع هو المراد فى زمان المستنصرية وما بعده .

(٣٨) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٥) .

(٣٩) منتخب المختار (ص ٢١١ - ٢١٣ الرقم ١٨١) .

(٤٠) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ٤٢٥) ، ورحلة ابن بطوطة (٢ : ١٠٩ طبع باريس) ،

والبداية والنهاية لابن كثير (١٣ : ١٥٩) ، وشذرات الذهب (٥ : ٢٠٩) .

وقد وقفنا على شعر في ذمها ، وآخر في مدحها نقلهما ابن الفوطى بقوله :

« وفيها (أى فى سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م) ، توفي شمس الدين محمد بن عبيدالله الهاشمى الكوفى الواعظ ببغداد ، وكان أدبياً فاضلاً عالماً شاعراً وله يذم حمام المستنصرية بأنه بارد :

ولو ان أيوب فى عصرنا

لجاء إلنا فحمامنا

فناقضه كمال الدين الأبرى فقال :

أرى ماء حمامكم كالحمد

وعهدى بكم تسمطون الجدى

وسبب التقصير ، ان المستنصر غضب عند سماع الأولى ، فاعتذر إليه بالثانية « (٤١) » .

٨- اليمارستان

اليمارستان (بفتح الراء وسكون السين) ، نغلة فارسية مركبة من كلمتين : « يمار » بمعنى مريض ، و « ستان » بمعنى محل (٤٢) . فهى اذا « دار المرضى » ، أو ما يطلق عليه اليوم لفظة « مستشفى » . وفى بعض المراجع القديمة وردت « المارستان » اختصاراً لليمارستان .

لم يفت مؤسس المستنصرية ، أن يقيم فيها يمارستاناً ، يعالج فيه المرضى من أبناء هذه المدرسة . ففى أخبار سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) ذكر ابن الفوطى انه « تكامل بناء الايوان الذى انشئ مقابل المدرسة المستنصرية ، وعمل تحتيها صفة يجس فيها الطيب ، وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فداويهم » (٤٣) .

وسياتى فى الكلام على « شروط المدرسة » قول الصفدى نقلاً عن ابن الساعى ، وهذا نصه :

« (شرط) أن يكون بها طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس بعلم الطب » .

وقد أفاض ابن الفوطى بذكر هذا الشرط ، فقال فى تلخيص شروط المدرسة :

« وشرط أن يرتب بها طبيب حاذق مسلم ، وعشرة أنفس من المسلمين يشتغلون بعلم

(٤١) الحوادث الجامعة (ص ٣٩٠ - ٣٩١) .

(٤٢) الالفاظ الفارسية العربية لادى شير (بيروت ١٩٠٨ : ص ٣٣ و ١٤٥) . وتاريخ اليمارستانات

فى الاسلام للدكتور أحمد عيسى بك (دمشق ١٩٣٩ : ص ٥) . وقد وردت اليمارستانات فى معاجم اللغة

فى مادة « م ن من » ١٥

(٤٣) الحوادث الجامعة (ص ٨٢) وفى شذرات الذهب (٢٠٩ : ٥) اشارة الى «مارستان المستنصرية»

الطب ، ويوصل اليهم ما للمقدم ذكرهم (٤٤) ، وأن يكون الطيب يطب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ، ويعطى المريض ما يوصف له من ادوية واشربة وغير ذلك ، (٤٥) .
 وذكر ابن العبري ، ان طيب المستنصرية كان « يتردد الى مرضاها في بكرة كل يوم يفقدهم ، (٤٦) .

والذين اشتغلوا في هذا اليمارستان ، أو عنوا بتدريس الطب للطلاب ، قد تناثرت أخبارهم هنا وهناك . وممن انتهى اليها ذكره من أطباء المستنصرية :

المبارك بن المبارك بن عمر الاواني أبو منصور المنعوت بالشمس ، المعروف بابن الصباغ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) . قال بخته من ترجمه انه « كان عالما بالطب ماهرا في صناعته ، له فيه تصانيف ، وكان ناهز المائة ونيف عليها ، قاله ابن القوطي ، وكان متعا بسمعه وبصره ، (٤٧) .
 وجاء في الحوادث الجامعة انه بلغ من العمر مائة وست سنين (٤٨) .

وقد ذكر الرحالة البرتغالي بدرو تيكسيرا ، في سنة ١٦٠٤ م ، « انه كان لا يزال يرى في بغداد أخرية مبان لطيفة من العصور الفارسية (كذا) ، كالجامع المسمى بجامع الخليفة ، وغيره مما يطل على النهر ، منها مدرسة كانت مستشفى (٤٩) .

وعلق العلامة كرينول على قول الرحالة ، ان المدرسة المشار اليها في آخر العبارة انما هي « المدرسة المستنصرية » التي في الجانب الشرقي من بغداد ، فقد كانت تحوى على مستشفى (٥٠) .

٩- الصيرلية

مر بنا آنفا ذكر « بيمارستان » المستنصرية ، والآن نقول انه لا يمكن أن يكون في هذه المدرسة بيمارستان ، ما لم يعضده « صيدلية » تحوى أنواع الادوية وضروب العقاقير التي تتخذ في

(٤٤) أى أن يعطى لهم من الجرايات مثل ما يعطى غيرهم من أرباب هذه المدرسة .

(٤٥) الحوادث الجامعة (ص ٥٩) . انظر أيضا البداية والنهاية (١٣ : ١٣٩ و ١٥٩) .

(٤٦) تاريخ مختصر الدول (ص ٤٢٥) .

(٤٧) منتخب المختار (ص ١٦٤ الرقم ١٣٩) .

(٤٨) الحوادث الجامعة (ص ٤٤٥) .

(٤٩) *The Travels of Pedro Teixeira*. Translated by W. F. Sinclair and D. Ferguson. (Hakluyt Society, London, 1902; p. 64).

(٥٠) Creswell (K. A. C.); *Early Muslim Architecture* (Vol. II, Oxford, 1940; p. 35).

معالجة المرضى ومؤاساتهم • وقد نقل الى هذه الصيدلية المعاجين والاكحال والاشربة وغير ذلك من مستلزمات العلاج • وفي شرط الواقف اشارة صريحة الى « الاشربة والادوية » (٥١) التي تعطى للمرضى من ارباب هذه المدرسة •

١٠ - المخزن

أشار اليه ابن الفوطى اشارة واحدة ، في حوادث سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) بقوله ان فيها « فتح باب مخزن المدرسة المستنصرية ، المقابل لباب سوق المدرسة ، وأخذ منه نحو أربعمائة رطل شمعاً معسولاً ، وحدود ثلثمائة رطل سكرًا ، وبلغ ثلثمائة دينار ، وثلاثون مصمتاً (٥٢) طبرية • وقيل ان جوقه الرندي (٥٣) فعلوا ذلك » (٥٤) •

وكفى بهذا الخبر بياناً بما كان يكنه هذا المخزن من صنوف المال ، التي ذكر منها ابن الفوطى في خبر هذه الجريمة القديمة طرفاً منها • فما قولك بجمع ما كان يضمه ؟ انه كان ولا شك يحوى شيئاً كثيراً من الورق والأقلام والحبر ، والزيت والمصابيح ، والصابون ، والملابس ، والفرش ومؤونة الطعام ، وأدوات الأكل وغير ذلك من المواد التي لا تحصى كثرة مما تستلزمه هذه المدرسة الداخلية الكبيرة وتقتضيه ادارة شؤونها •

وذكر غيره من المؤرخين ان في المستنصرية « مخزناً فيه كل ما يحتاج اليه من أنواع ما يطبخ من الاطعمة » (٥٥) •

١١ - الرار المجاورة

معظم هذه الدار لا أثر له اليوم • وقد قال ابن الساعي البغدادي بحقها انها « مجاورة لهذه المدرسة ، في الحد الاعلى منها ، لم ير مثلها أحد ، ولا لادراك وصفها أمد » (٥٦) • قضى قوله انها « في الحد الاعلى منها » ، دليل قاطع على انها كانت في شمالي المستنصرية •

(٥١) قال ابن العبري (تاريخ مختصر الدول • ص ٤٢٥) ان في المستنصرية ، « مخزناً آخر فيه انواع الاشربة والادوية » • وما هذا المخزن بالحقيقة الا صيدلية المدرسة •

(٥٢) أي ثياباً مصمتة • والثوب المصمت هو الذي ، يخالط لونه لون •

(٥٣) هو من أولاد الماليك الاشرار (الناصر) •

(٥٤) الحوادث الجامعة (ص ٢١٣) •

(٥٥) تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٤٢٥) •

(٥٦) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٤ (١٩٢٤) ص ٤٣) •

ان هذه الدار قد ضاعت بادخالها في بعض الاسواق التي تجاور المستصرية من جهتها الشمالية . ولا يرى منها اليوم سوى « ايوان » فائق الزخرفة (اللوح ٤ أ - ب ، واللوح ٥ ، واللوح ٦ - أ) ، كان حتى سنة ١٩٣٤ خانوتا اخناز ، ثم خانوتا لاسكاف ، وهو على ذلك الى يومنا هذا ولقد فصلنا القول في هذا الايوان ، في موضوع « اواوين » المستصرية كما نوهنا بذكر الدار وافتتاحها في الفصل الخاص بـ « افتتاح المدرسة » .

١٢ - دار الحديث

هي من جملة مشتملات هذه المدرسة ، وقد صرح بعض المؤرخين بذكرها في كلامهم على شروط المدرسة . فقد شرط المستنصر أن « يكون في دار الحديث التي بناها ، شيخ عالي الاسناد ، وقارئان ، وعشرة أنفس يشتغلون بعلم الحديث النبوي ، وأن يقرأ الحديث في كل يوم سبت واثنين وخميس من كل اسبوع . وشرط لهم الجراية والمشاهرة والتعهد اسوة بالفقهاء » (٥٧) . وفي هذا الخبر اشارة طريفة الى ما كان من أمر توزيع الدروس بين أيام الاسبوع .

وأورد ابن الساعي خبرا بصدد هذه الدار ، يختلف عما نقله ابن الفوطي ، ونحن نذكره هنا لفائدته . قال فيما شرطه المستنصر : « أن يكون في دار الحديث النبوي شيخ عالي الاسناد يشتغل بعلم الحديث وقارئ ، وطلبة . ويكون للشيخ المتسمع في كل يوم ستة أرطال خبزا ورطلان لحما ، وفي كل شهر ثلاثة دنانير . وللمشتغلين لكل واحد منهما في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طيخا وفي كل شهر ديناران وعشرة قراريط ، وللقارئ في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طيخا وكل شهر ثلاثة دنانير ، وللطلبة اسوة الايتام الذين يتلقون القسرآن في الخبز والغرف والمشاهرة » (٥٨) .

١٣ - دار القرآن

وشأن هذه الدار شأن دار الحديث التي مر بنا ذكرها . فقد شرط المستنصر « أن يكون في دار القرآن المجيد شيخ يلقي القرآن ، وثلاثون صبيا أيتام ، ومعيد يحفظ الثلاثين . ويكون للشيخ كل يوم سبعة أرطال خبزا وغرفان طيخا ، وفي الشهر ثلاثة دنانير . وللمعيد في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طيخا ، وفي كل شهر دينار وعشرون قرارطا . وللصبيان ، لكل صبي

(٥٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٨) .

(٥٨) مجلة الجمع العلمي العربي بمشقة (٤) (١٩٢٤) ص ٤٢ .

في كل يوم ثلاثة أرتال خبزا وغرف طيخا ، وكل شهر ثلاثة عشر قيراطا وحة « (٩٠) .
 وذكر عبدالرحمن الاربلي أن « الى جانب هذه المدرسة دارا برسم تلقين القرآن المجيد » (٩١) .
 وقال ابن الفوطي في خبر هذه الدار ، ان المستنصر « شرط أن يكون في الدار المتصلة
 بالمدرسة ، ثلاثون صيا أيتاما يتلقون القرآن المجيد من مقرأ متقن صالح ، يحفظهم معيد ، ولهم من
 الجراية والمشاورة والتعهد ما للمشتغلين بعلم الحديث » (٩١) .
 ففى هذا الخبر الاخير ، اشارة مفيدة الى أن « دار القرآن » لم تكن من ضمن بناية المستنصرية ،
 بل انها « متصلة بالمدرسة » . فلعل تلقين القرآن كان يجرى في « الدار المجاورة » وعند ذلك
 يتاح لنا اعتداد « الدار المجاورة » و « دار القرآن » دارا واحدة .

١٤ - المطبخ :

كان في المستنصرية « مطبخ » ضاعت معالمه . ولما زار بغداد الرحالة الالماني الشهير نيبهر
 (Carsten Niebuhr) سنة ١١٤٦هـ (١٧٥٠م) ، وجد هذا المطبخ بينا ظاهرا ، الا انه كان متخذا
 دارا للمكس (٩٢) .

١٥ - البستان :

ذكر ابن العبري في تاريخه ، ان المستنصر « من سدة غرامه بمدرسته المعروفة بالمستنصرية ،
 أعمر لصقها بستانا خاصا به . فقل ما يبضى يوم الا ويركب في السيارة (٩٣) ويأتي البستان يتنزه
 فيه ويقرب من شباك مفتوح في ابوان المدرسة ينظر الى البستان وعليه ستر . فيجلس وراء الستر
 وينظر الى المدرسة ويشاهد أحوالها وأحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد أحوالهم » (٩٤) .
 فلعل هذا البستان كان في « الرصيف » الحالي ، والا فان هذا الخبر يحتاج الى تحقيق
 بالنظر الى خطط بغداد .

(٥٩) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٤ * ١٩٣٤ « ص ٤١ - ٤٢) .

(٦٠) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١٢) .

(٦١) الحوادث الجامعة (٥٨ - ٥٩) .

(٦٢) (Niebuhr (C.); Voyage en Arabie (Vol. II, Amsterdam, 1780; p. 241).

(٦٣) كذا ما في المطبوع . والصواب : السيارة ، وقد مر بنا تفسير معناها .

(٦٤) تاريخ مختصر الدول (ص ٤٤٢) .

٩ - خزانه الكتب

اولا - اشار الخزانة :

كان المستنصر ، على ما وصفه به المؤرخون « من أول أمره ومبدأ عمره متشاغلا بالعلوم الدينية والادبية ، منعكفا على نقل الكتب ؛ حريصا على ذلك مواظبا عليه ، حسن الخط ، صحيح الضبط . ومن محبته للعلوم أشأ خزانه الكتب بشريف حضرته ومقدس سترته ، جمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها واثلافها ، بالاصول المضبوطة والخطوط المنسوبة ، وما جاوز حد الكثرة ، (٦٥) .

وقد أشار بعض هؤلاء المؤرخين ، الى أن المستنصر ، بعد أن تم تشييد مدرسته ، وجرى افتتاحها بالوجه الذي وصفناه في موطن آخر من هذا البحث ، « نقل اليها في هذا اليوم من الربعات الشريفة ، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حملة مائة وستون حملا (٦٦) ، وجعلت في خزانه الكتب . وتقدم الى الشيخ عبدالعزیز (ابن دلف الخازن) شيخ رباط الحریم بالحضور بالمدرسة واثبات الكتب واعتبارها ، والى ولده العدل ضياء الدين أحمد ، الخازن بخزانه كتب الخليفة التي في داره أيضا ، فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب ، مفضلا لفنونها ، ليسهل تناولها ولا يتعب تناولها (٦٧) . وكنا ذكرنا هذا وأعدنا ذكره للترتيب والتوكيد .

ولمح ابن كثير الى هذه الخزانة بقوله ان المستنصر « وقف فيها كتبا نفيسة ليس في الدنيا لها نظير » (٦٨) .

فهذه الكتب الكثيرة التي جىء بها في ذلك اليوم الشهود ، انما نقلت من خزانه المستنصر الخاصة . فما أعظمها هبة !

وأما عدد مجلدات هذه الخزانة الحافلة ، فقد نقل ابن عبة العلوي ، ان المستنصر « أودع

(٦٥) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١١ - ٢١٢) .

(٦٦) في تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٣٠٦) ان ما نقل الى خزانه المستنصرية « مائة وستون حملا من الكتب النفيسة » .

(٦٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

(٦٨) البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .

خزائنه في المستنصرية ثمانين ألف مجلد ، ثم زاد على ذلك قوله « والظاهر انه لم يبق منها شيء ، والله الباقي » (٦٩) .

حدث هذا ، قبل زمان ابن عنبه المذكور وقد توفي سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) !

وفي رواية عبدالرحمن الاربلي ، نقلا عن تاريخ ابن الساعي في بني العباس ، ان المستنصر « جعل فيها (أي في المستنصرية) خزائنه الكتب ، ونقل إليها من الربعات الشريفة والاصول ، سوى ما نقل إليها بعد ذلك » (٧٠) .

ففي هذا الكلام دليل على أن كتب الخزائنه كانت في ترايد وتكاثر من بعد افتتاح المدرسة .

ثانياً — موظفو الخزائنه :

كان في هذه الخزائنه غير واحد من الموظفين ، وهم في الجملة على ثلاثة أصناف :

• أولاً : الخازن

• ثانياً : المشرف

• ثالثاً : المناول

ومما شرطه المستنصر لمدرسته ، « أن يكون لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزاً ، وأربعة لحماً ، وفي كل شهر عشرة دنانير » .
« وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كل يوم خمسة أرطال خبزاً ، ورطلان لحماً ، وفي كل شهر ثلاثة دنانير » .

« وأن يكون للمناول في هذه الخزائنه في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبخاً ، وفي كل شهر ديناراً » (٧١) .

ثالثاً — بعض أخبار هذه الخزائنه :

في بعض التواريخ شيء من أخبار هذه الخزائنه . من ذلك ما ذكره ابن الفوطي ، ان الخليفة المستعصم « قصد المدرسة المستنصرية يوم الجمعة سابع شعبان (سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م) ومعه الشيخ شمس الدين علي بن النيار ، واعتبر خزائنه الكتب التي بها ، وانكر عدم ترتيبها ، ووكل

(٦٩) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (ج ١٨٢ طبعه بومبي) .

(٧٠) خلاصة الذهب السبوك (ج ٢١٢) .

(٧١) انظر الفصل المنون « شروط المستنصرية » من هذا البحث .

بالتواب يومين ، ثم أفرج عنهم ، (٧٢) .

فزيارة المستعصم للخزانة ، كانت بعد تبوئه الخلافة بنحو من شهرين .
ومن طريف ما ورد من أخبارها ، أن في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) : « أنهى خازن المدرسة
المستنصرية : انه شاهد ختم الخزانة متغيرا والقفل بحاله ، فاعتبروا ما فيها من الرهون والعين ، فشد
منها شيء ، ومن المال ثلثمائة دينار . فأنتهى ذلك الى الخليفة ، فأمر بالزام الفقهاء والحاشية برمي
تراب (٧٣) ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلم يجدوا شيئا ، فتقدم بتقسيط ذلك على البواب بالخزانة
والفراشين على قدر أحوالهم ، فاستوفى ذلك منهم ، ورتب عوضهم » (٧٤) .

يستخلص من هذا الخبر النفيس ، ان الخزانة كانت تقفل وتختتم ، والظاهر انها كانت تضم
في ما تضم دراهم ورهونا تؤخذ من الناس في مقابل اعارتهم بعض كتبها ، وان عين الخليفة - وهو يوم
ذاك المستعصم - كانت ساهرة على حفظ مصالح هذه الخزانة ، يقظة على سلامتها .

وأورد ابن الفوطى في حوادث سنة ٦٩٦ هـ (٧٥) ، ان السلطان غازان « دخل
المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة لها . . . وكان المدرسون والفقهاء قد جلسوا على عادتهم
والربعات الشريفة في ايديهم . . . فدخل خزانة الكتب ولمحها (٧٦) » .

رابعاً - من عرف من موظفي خزنة خزانة نور علوم مدرسي

لبت المستنصرية دهرا طويلا تفخر بهذه الخزانة الحافظة التي تضم نفائس الكتب وأمهاتها .
وقد وقفنا على تراجم طائفة من خزانة والمشرفين عليها والمناولين فيها . وسنذكر شيئا عن بعضهم ،
بحسب سياقة سنى وفياتهم .

١ - الخزانة :

أ - الشيخ عبدالعزيز بن دلف بن أبي طالب أبو محمد البغدادي الناسخ : شيخ رباط الحرير ،

(٧٢) الحوادث الجامعة (ص ١٧٠ - ١٧١) .

(٧٣) جاء في حاشية المطبوع قول الناشر الدكتور مصطفى جواد : « أى رمى كل واحد كومة من

التراب ، فالسارق يدس السرقة في الكومة فلا يعرف . وعذا كالفألة عند العرب » .

(٧٤) الحوادث الجامعة (ص ٢٢٣) .

(٧٥) في رواية هذا التاريخ اختلاف : ففي الفخرى لابن الطقطقى (ص ٢٢) سنة ٦٩٨ هـ . وفي

نكت الهميان في نكت العيان للصفدى (ص ٢٠٦) سنة ٦٩٥ هـ . ويقول الدكتور مصطفى جواد ناشر

كتاب الحوادث الجامعة ، ان الصحيح ما في أعلاه ، لان ابن الفوطى كان اذ ذاك قيم خزانة الكتب بالمستنصرية .

(٧٦) الحوادث الجامعة (ص ٤٩٢ - ٤٩٣) .

في أيام المستنصر . ذكر ابن الفوطى ، انه بعد أن نقلت الكتب الى خزانة المستنصرية ، تقدم نصير الدين ابن الناقد نائب الوزارة ، الى الشيخ عبد العزيز « بالحضور بالمدرسة واثبات الكتب واعتبارها » (٧٧) . فهو في طليعة المشتغلين بهذه الخزانة (٧٨) .

ب - العدل ضياء الدين احمد ابن الشيخ عبدالعزيز المتقدم ذكره : كان الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره . ولما فتحت المدرسة المستنصرية ونقلت الكتب الى خزانتها ، تقدم اليه نصير الدين ابن الناقد نائب الوزارة أن يحضر إليها ، أى الى الخزانة « فحضر ، واعتبرها ، ورتبها أحسن ترتيب مفصلا لفتونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها » (٧٩) .

ج - الشمس على بن الكتبي : كان اول خازن ثابت في خزانة المستنصرية . أشار ابن الفوطى (٨٠) الى انه نال خلعة في حفلة افتتاح المدرسة .

د - ابن الساعى (٨١) وهو ابو طالب على بن أنجب تاج الدين البغدادي ، المتوفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ - ٦ م) . كان خازن كتب المستنصرية . وله التأليف المشهورة في تاريخ العراق خاصة . انتهى اليها من مؤلفاته :

(٧٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) وفي كتاب « اصول التاريخ والادب » من مجموعات مصطنى جواد الخطية ان عبدالعزيز هذا كان مقرنا وتولى حزن الكتب التي وقفها الامام الناصر لدين الله في تربية زوجته سلجوقى خاتون بباب البصرة من الجانب الغربى في مجلة الخطير الياس الحالية وخرن الكتب الموقوفة بسجده الشريف على بن أحمد الزينى بدر دينار من الجانب الشرقى ثم تولى مشيخة رباط الحرم وتوفى في صيف سنة ٦٣٧ هـ (ج ٦ ص ٦٩) و (ج ٩ ص ٩٦) و (ج ٢١ ص ٥٢ ، ١٥٦) (ج ٣٠ ص ٨٠) (ج ٢٧ ص ٢٠٧ ، ٢٠٩) (ج ٣٢ ص ٤٣) .

(٧٨) ترجمه الدكتور مصطنى جواد ترجمة حسنة مستندا فيها الى المراجع المخطوطة والطبوعة ، فى مجلة العلم الجديد (٦ (١٩٤٠) ص ١٠٨ - ١١٠) فى مقال بعنوان « أشهر عامة عراقية : فخر النساء شهيدة الكاتبة العالمة » .

وللشيخ عبدالعزيز هذا ترجمة مختصرة فى « نامة النهاية فى طبقات القراء » لشمس الدين الجزرى (١ : ٣٩٣ الرقم ١٦٧٤ طبعة برجستراسر فى القاهرة ١٩٣٣) .

(٧٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) وفى اصول التاريخ والادب انه توفى فى سنة ٦٤٠ هـ « ج ٢٧ ص ٤١٩ » .

(٨٠) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .

(٨١) راجع ترجمته فى : الحوادث الجامعة (ص ٣٨٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤ : ٢٥٠) ، وشذرات الذهب (٥ : ٣٤٣ - ٣٤٤) ، وخصوصا مقدمة الجامع المختصر (صفحة ط - ذ) وهى للسكندر مصطنى جواد ، وتاريخ العراق بين احتلالين للدعامة نبال العزاوى (١ : ٨٢٣ - ٨٢٤) .

- ١ - أخبار الادباء : منه نسخة فريدة كاملة في خمسة مجلدات ، في خزانة الحاج قدور الحلبي بحلب (٨٢) ، مؤرخة في سنة ٨٨٥ - ٨٨٦ هـ (١٤٨٠-١٤٨١ م) . فهو من نفائس الكتب الخطية .
- ٢ - الجزء التاسع من « الجامع المختصر » . غني بنشره الدكتور مصطفى جواد (بغداد ١٩٣٤) . وهو يتناول حوادث السنين ٥٩٥ - ٦٠٦ هـ .
- ٣ - وقد طبع له « مختصر أخبار الخلفاء » (ببلاط ١٣٠٩ هـ) . والمرجح عند بعض المحققين انه ليس له .

٥ - ابن الفوطي (٨٣) : وهو عبدالرزاق بن أحمد بن محمد البغدادي . ولد سنة ٦٤٢ هـ ، وأسر في كائنة بغداد ، فاتصل بالنصير الطوسي فخدمه . وباشر كتب خزانة الرصد بمراغة ، وعدتها على ما نقل اربعمائة الف مجلد . واطلع على نفائس الكتب ، فعمل تاريخا حافلا جدا ، ثم اختصره في آخر سماه مجمع الآداب ومعجم الاسماء على الالقاب في خمسين مجلدا . وقد انتهى اليها المجلد الرابع من مختصر مجمع الآداب ، وهو لم يطبع (٨٤) . وله درر الاصداف في بحور الاوصاف والدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة . وهذه كلها قد ضاعت . ومن مؤلفاته الحوادث الجامعة وهو من أهم مراجعنا في هذا البحث ، وقد طبع في بغداد كما ذكرنا . وولي ابن الفوطي خزن كتب المستنصرية ومات سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) .

٢ - المشرفون

- أ - العماد علي بن الدباس : كان أول مشرف في خزانة المستنصرية ، ذكره ابن الفوطي (٨٥) في كلامه على فتح هذه المدرسة ، وقال انه نال خلعة حينذاك .

(٨٢) P. Sbath; *Al Fihris* (Catalogue de Manuscrits Arabes).
Supplément. (Le Caire, 1940; p. 38, No. 2775).

(٨٣) ترجمته في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٢ : ٣٦٤ - ٣٦٥ الرقم ٢٤١٤) ومقدمة ناشر الحوادث الجامعة (ص : ن - ش) ، ورسالة الاستاذ محمد رضا الشيباني في « ابن الفوطي » (بغداد ١٩٤٠ : ١٦ ص) ، وتاريخ العراق بين احتلالين (١ : ٤٨١ - ٤٨٢) .

(٨٤) نسخته بخط المؤلف في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، ومنها صورت نسخة للمكتبة العامة ببغداد . واخرى عنها في خزانة المتحف العراقي . واتسسخ الدكتور مصطفى جواد نسخة لنفسه عن نسخة المكتبة العامة .

(٨٥) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .

ب - محيي الدين ابن العاقولي^(٨٦) : درس في المستنصرية ، وانتهت اليه رئاسة العلم والتدريس ببغداد ، مات ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) . وكان وقتاً ما مشرفاً على خزانة كتب المستنصرية .

٣ - المناولون :

أ - الجمال ابراهيم بن حذيفة : كان أول من ذل في خزانة المستنصرية . وقد ذكره ابن القوطي^(٨٧) في كلامه على فتح هذه المدرسة ، وأشار الى نيله الخلعة حينذاك .

ب - محمد بن سعيد بن محمد بن أبي النجم الحدادي : كان صاحب ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٧٤ هـ) ووصيه . وهو من أقدم المناولين في هذه الخزانة^(٨٨) .

ج - عبدالرحيم بن محمد : هو ابن محمد السابق ذكره . كان كأبيه مناوياً بخزانة الكتب بالمستنصرية ، وله بها معرفة تامة^(٨٩) . مات ببغداد سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) .

خامساً - مصير هذه الخزانة :

بقيت هذه المدرسة مدة طويلة حافلة بكتبها التي تعد بعشرات الآلاف ، زاخرة بالمطالعين والمستفيدين من نفائس مكنوناتها . ولا غرابة في أن تتسع لهذا المقدار ، بعد أن رأينا ما كان من عناية المستنصر بها ، ثم المستعصم من بعده ، تلك العناية التي شهد بها المؤرخون .

ولكن نكبات مختلفة اتت بها فزعزت أركانها . وكان في طليعة تلك الرزايا ، حادثة استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وتدميرهم معالم العلم وال عمران فيها .

ويؤخذ مما ذكره ابن شاکر الكتبي والصفدي في ترجمة نصير الدين الطوسي ، ان جانباً كبيراً من خزانة هذه المدرسة نقل من بغداد الى مراغة ، عند استيلاء المغول على العراق ، فان نصير الدين ، كان ذا حرمة وأفرة ومنزلة عالية عند هولاء ، وكان يطيعه فيما يشير به عليه وابتنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً ، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الارحاء وملاؤها من الكتب التي

(٨٦) ترجمته في : منتخب المختار (ص ١٨٥ - ١٨٦ الرقم ٢٥٨) ، والدرر الكامنة (٣ : ٤٨٣)

الرقم ١٢٩٣) .

(٨٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .

(٨٨) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٠ الرقم ٢٤٠٥) .

(٨٩) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٠ الرقم ٢٤٠٥) .

نُهبت من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على اربعمائة الف مجلد « (٩٠) »
 ولقد مر بنا في صدر هذا الفصل ، قول ابن عنبه المتوفى سنة ٨٢٩ هـ بصدد هذه الخزانة ،
 وهذا اعادة بعضه : « ... والظاهر انه لم يبق منها شيء والله الباقي » (٩١) .
 فخزانة المستنصرية ، كانت منذ بداية المائة التاسعة للهجرة مندثرة ، قد تشتت كتبها بالحرق
 والنهب والتمزيق والتفريق . والذي سلم منها لا يعلم اليوم مصيره ، ما خلا كتابا واحدا ، وهو
 نسخة من كتاب « ربيع الابرار » للزمخشري ، هي اليوم في الخزانة الوطنية بباريس (٩٢) !
 وقد ذكر ابن العبري خبرا طريفا يخص أحد كتب هذه الخزانة ، نقله عنه في ما يلي ، وان
 كنا نجعل أين صار ذلك الكتاب ، قال :

« ومما يستدل به على علو همة الحكيم عيسى بن القيس ، انه نسخ كتاب القانون (٩٣) بخطه
 في شيبه ، ثم خرجت النسخة عن ملكه بحكم شرعي وحصلت في خزانة المدرسة المستنصرية .
 فلما أسن ، طلب النسخة وقابلها وصححها وأعادها الى مكانها ، فسيه باغضوه الى فضول ومحبود
 الى مثوبة يتوخاها . فقال : كلا الفريقين مخطيء ، وانما فعلت ذلك لئلا يزرى على بعض
 موتى » (٩٤) .

وأشار المقرئ الى أحد كتب هذه الخزانة ، يعرف بكتاب الياسة ، وهو يحتوي على القوانين
 التي وضعها جنكركخان لقومه ، وضمنها النواهي والزواجر ، قال : « واخبرني العبد الصالح الداعي
 الى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله ، أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة

(٩٠) فوات الوفيات لابن شاکر الکلبی (٢ : ١٤٩ : بولاق ١٢٩٩ هـ) والوفیات للصفدی

(١ : ١٧٩) .

(٩١) عمدة الطالب (ص ١٨٢) .

(٩٢) راجع :

Blochet; *Catalogue de la Collection de Manuscrits Orientaux Arabes, Persans et Turcs formée par M. Charles Schefer et acquise par l'État* (Paris, 1900, p. 37-38; No. 5685).

Blochet; *Catalogue des Manuscrits Arabes des Nouvelles Acquisitions* (1884-1924). (Paris, 1924, p. 155; No. 5985).

(٩٣) يريد به « القانون في الطب » لابن سينا .

(٩٤) تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٤٧٩) .

المستنصرية ببغداد» (٩٥) .

وذكر الحاج خليفة ، أن نسخة من « تاريخ بغداد » لابي بكر الخطيب البغدادي ، بخط المؤلف ، كانت في وقف المستنصرية ، أربعة عشر مجلدا (٩٦) .

وقال ابن تغري بردي في كلامه على أبي بكر طه ابن ابراهيم بن احمد بن اسحق البخاري ثم البغدادي : له كتاب في الادبيات نحو العشرين مجلدا ، يشتمل على شعر وترسل وحكايات وغير ذلك ، كان بخطه وقفا بالمستنصرية ، مات في حدود سنة ٦٥٠ هـ تقريبا (٩٧) .

١٠ - ساعة المستنصرية

ومن عجيب ما خصت به هذه المدرسة ، الساعة المائية ، التي وصفها غير واحد من المؤرخين والشعراء ، فجات ، على ما وصفوها به ، من طرائف الآلات الروحانية التي ابتدعها الاقدمون . قال ابن الفوطي ، في أحداث سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) ، بصد هذه الساعة ما هذا نصه : « وفيها ، تكامل بناء الايوان الذي انشئ مقابل المدرسة المستنصرية ، وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم . وبنى في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة ، وفي الدائرة بأزان من ذهب في طاستين من ذهب ورائهمتسا بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر . فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب فيصير حينئذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع أعمار (٩٨) من ذهب في سماء لآزوردية في ذلك الفلك . مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيوبتها . فاذا جاء الليل فهناك أعمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم يتبدى في الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة (٩٩) . ونظم الشعراء في ذلك أشعارا ، منها قول

(٩٥) خطط المقرئ (٣ : ٣٥٨ ، مطبعة النيل ١٣٢٥ هـ) .

(٩٦) كشف الظنون (٢ : ١١٩ ، طبعة فلوجل) .

(٩٧) اصول التاريخ والادب للدكتور مصطفى جواد (١٦ : ١٧٤ ، مخطوط) .

(٩٨) في خلاصة الذهب المسبوك : شمس ، وهو التصحيح وسنجدى . بذلك وراجع الحوادث الجامعة (ص ٨٣)

(٩٩) وصف الرحالة الشهير ابن جبير (رحلته : ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، طبعة دي غويه) ساعة اخرى من

هذا القبيل ، كانت في الجامع الاموي بدمشق .

أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ، من أبيات مدح بها الخليفة (١٠٠) :

يا أيها المنصور يا مالكا	برأيه صعب الليالى يهون
شيدت لله ورضوانه	أشرف بنان يروق العيون
ايوان حسن وضعه (١٠١) مدهش	يحار فى منظره الناظرون
تهدى (١٠٢) الى الطاعات ساعاته	الناس وبالنجم هم يهتدون
صور فيه فلك دائر والث	ميس تجرى ما لها من سكون
دائرة من لازورد حكت	نقطة تبر فيه سر مصون
فلك فى الشكل وهذى معا	كمثل هاء ركبت وسط نون (١٠٣)
فهي (١٠٤) لاجياء العلى والندى	دائرة مركزها العالمون

وممن أجاد فى وصف هذه الساعة العجيبة ، عبدالرحمن الاربلى ، فقد قال :

• وبنيت لهم (أى لطيب المستصرية وطلبتنه) صفة فاخرة مقابلة للمدرسة ، يجلس فيها ، فيقصده المرضى فيداويهم • وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة عجيبة ، وصورتها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات صفار لها أبواب ، كلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب الطاقات ، وهو مذهب نضار مفضضا ، ومضت ساعة من الزمان ، والبندققان من شبه يقعان من قم بازين من ذهب فى طاستين من ذهب ، ويذهبان الى مواضعهما • وتطلع شمس من ذهب فى سماء زرقاء فى ذلك الفلك ، ومع طلوع الشمس تدور مع دورانها وتغيب مع غيوبتها • فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك أعمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما مضت ساعة تكامل الضوء فى دائرة القمر ، ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس (١٠٥) .

وممن أشار الى هذه الساعة ، زكرياء بن محمد بن محمود القزوينى ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ فقال : • وعلى باب المدرسة ايوان ركب فى صدره صندوق الساعات على وضع عجيب يعرف منه أوقات الصلوات وانقضاء الساعات الزمانية نهارا وليلا ، (١٠٦) • ثم أورد الابيات الشعرية الثمانية

(١٠٠) الابيات وردت أيضا فى آثار البلاد واخبار العباد للقزوينى (ص ٢١١ طبعة وستفولد) .

(١٠١) فى آثار البلاد : وصفه .

(١٠٢) لم يرد هذا البيت فى الحوادث الجامعة ، وقد نقلناه من آثار البلاد .

(١٠٣) الحوادث الجامعة (ص ٨٢ - ٨٤) .

(١٠٤) هذا البيت أيضا نقلناه من آثار البلاد .

(١٠٥) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١٢) .

(١٠٦) آثار البلاد (ص ٢١١) .

التي أبتناها في نص ابن الفوطي .

وقد نقل التقي الذبيبي المكي ، في ترجمة « أحمد بن علي بن تغلب بن أبي الضياء البعلبي الاصل ، البغدادي المولد والمنشأ ، المعروف بابن الساعاتي » ، ان أباه هو الذي عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد (١٠٧) ، لانه كان مشتهرا بالهيئة والنجوم وعمل الساعات (١٠٨) .

وقد عين ابن الفوطي سنة ولادة وسنة وفاة هذا الرجل بقوله : « وفيها (أي سنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م) توفي نور الدين علي بن تغلب الساعاتي ، كان يتولى تدبير الساعات التي تجاه المستنصرية . كان مولده سنة احدى وستمائة (١٢٠٤ م) ، (١٠٩) .

ان هذه الساعة التي تعد من بدائع الصناعة ونفائس الآثار ، لم يبق لها اليوم أثر ما . وقد عمدنا الى المراجع العربية القديمة المصورة ، علنا نعر فيها على ما يهدينا الى حقيقة شكلها ، فوقفنا على صورة جميلة ، لساعة قديمة ، هي لكأنها ساعة المستنصرية في صفتها التي نقلناها آنفا عن بعض المؤرخين .

هذه الصورة (انظر اللوح ١٧ أ) ترى في مخطوطة جلييلة القدر ، محفوظة في خزانه متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن في أميركية ، وعنوان المخطوطة : « كتاب في معرفة الحيل الهندسية » .

وقد يسمى هذا التأليف أيضا :

« الكتاب الجامع بين العلم والعمل ، النافع في صناعة الحيل » .

وهو تأليف بديع الزمان أبي العز اسماعيل ابن الرزاز الجزري ، صنفه سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) بأمر السلطان محمود بن محمد الارتقي ، الذي حكم ديار بكر من سنة ٥٩٧ الى ٦١٩ هـ (١٢٠٠ - ١٢٢٢ م) .

ولهذا الكتاب نسخة خطية ثانية في خزانه أكسفرد .

(١٠٧) منتخب المختار (ص ٣٦) . وترجمه ابن قطلوبغا في « تاج التراجم في طبقات الحنفية » (ص

٧ - ٨ من نسختنا الخطية) .

(١٠٨) الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص ٢٦) . وأيضاً كشف الظنون (٥ : ٣٩٦ طبعة فلوجل)

في الكلام على كتاب « مجمع البحرين » لاحمد المذكور أعلاه .

(١٠٩) الحوادث الجامعة (ص ٤٤٤) .

لقد نشر نبذا من هذا الكتاب ، وبعضاً من صورهِ ، أحد كبار الباحثين ، في رسالة له بالانكليزية (١١٠) ، وفي اللوح الاول من هذه الرسالة ، صورة الساعة المشار اليها ، وقد نقلناها عنه في بحثنا هذا . والجدير بالذكر ، هو أن هذه الساعة وساعة المستنصرية قريباً عهد احدهما بالاخري ، فكلاهما صنعتا في النصف الاول من المائة السابعة للهجرة .

وكنا وقفنا على مقال للدكتور مصطفى جواد ، بعنوان « آثار بني العباس في العراق » (١١١) ، في آخره صورة خيالية وضعها لساعة المستنصرية ، قال فيها : « أما ساعتها المائبة العجيبة ، فقد استفرغت طاقتي في انتزاعها من ضمير التاريخ كلمات ، واحالة وصفها تصويراً يرسم تلك العظمة ويمثل تلك الصنعة » . وإن صاحب المقال ، والحق يقال قد قارب الحقيقة في تصويرها وتوضيحها (انظر اللوح ٧ ب) .

١١ - أوقافها

كان المستنصر بالله ، لبعده نظره ، ورغبة منه في اطالة بقاء هذه المدرسة ودوام عزها ، قد وقف عليها أوقافاً كثيرة ، تكفل لها بالبقاء ، وترفعه العيش لمن ينتسب اليها . فقد وقف عليها الدور والحنانات والقرى والاراضي . قال الذهبي : ان قيمة ما وقف عليها يساوي ألف ألف دينار (١١٢) . وقد بلغ ارتفاع وقوف المستنصرية في العام نيفاً وسبعين ألف مثقال من الذهب (١١٣) . وسرد الذهبي في تاريخه الكبير ، القرى والرباع الموقوفة عليها (١١٤) . وذكر ابن كثير ، ان المستنصر « وقف عليها أوقافاً عظيمة ، حتى قيل ان ثمن التبن من غلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها » (١١٥) ! فان صحت هذه الرواية ، أدركنا جسامة تلك الوقوف التي كانت تدر على هذه المؤسسة الثقافية أعظم الارتفاع وأوفره .

A. K. Coomaraswamy; *The Treatise of al-Jazari on Automata.* (١١٠)
(Boston, 1924).

(١١١) مجلة الهلال (يونيو ١٩٣٣؛ ص ١٠٥٧-١٠٦٤ ، الشكل ٦) .

(١١٢) دول الاسلام للذهبي (٢ : ١٠٣ طبع حيدرآباد) .

(١١٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي (٣ : ٦) نقلا عن تاريخ الذهبي الكبير .

(١١٤) لم يطبع هذا التاريخ الموسوم بـ « تاريخ الاسلام » . أما المجلد الذي سرد فيه مؤلفه القرى والرباع الموقوفة على المستنصرية ، فلم نقف عليه لننقل منه هذا النص . وقد اكتفينا بإشارة السيوطي نقلا عن الذهبي .

(١١٥) البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .

وهذه الاموال المتحصلة من الوقوف المستغلة ، كانت تصرف في وجوه المدرسة المختلفة :
كخزانه الكتب ، ورواتب المدرسين ، ومعيشة الطلاب ، واجور الفرائسين والخدم ، وأثاث المدرسية ،
ونفقات الطعام ، وغير ذلك مما تتطلبه هذه المدرسة من ضروب الانفاق .

١٢ - كتابات المستنصرية

مما تحلت به بناية هذه المدرسة ، طائفة من الكتابات التذكارية ، سطرت في بعض معالمها ،
لتكون دليلا ناطقا على بعد همة المستنصر وحسن عنايته في تشييد هذا الصرح العظيم .
والكتابات التي انتهت اليها ، كاملة أو مشوهة ، كانت تترى بالمدرسة في المواضع الآتية ذكرها:
اولا - كتابة تعلق باب المدرسة ، أى في الجهة الشرقية .
ثانيا - ثلاث كتابات ، احداها تعلق جبهة المدرسة النهرية ، والثانية الجبهة الجنوبية ، والثالثة
الجبهة الشرقية التي فيها مدخل المدرسة .
ولعل هناك كتابات اخرى كانت تعلق بعض الجبهات أو الابواب أو غير ذلك من أقسام المدرسة ،
ولكن ذهبت بمرور الزمن وأصبحت أثرا بعد عين .
وسنورد في ما يأتي ، نصوص كل ما أمكننا الوقوف عليه من هذه الكتابات .

الكتابة الاولى (١١٦)

كانت هذه الكتابة فوق باب المدرسة ، الشارع الآن على « سوق الهرج » . ثم اقتلعتها
مديرية الآثار القديمة العامة من مكانها بعناية تامة ، ورسمتها ، ووضعها أولا في احدى الحجر
من دار الآثار العربية في خان الامير مرجان ببغداد ، سنة ١٩٣٦ . وفي سنة ١٩٤٢ نقلتها من

(١١٦) ورد نص هذه الكتابة ، في المراجع الآتية :

- أ - مجلة الشرق (٥ (١٩٠٢) ص ٩٦٢) والمقال للسيد محمود شكرى الألوسى .
ب - تاريخ مساجد بغداد للألوسى (ص ٥٨) .

- ج - Massignon (L.); *Mission en Mésopotamie, 1907-1908. (Vol. II. le Caire, 1912; p. 44).*
- د - Viollet (H.); *L'Architecture Musulmane du XIIe Siècle en Irak. (Extrait de Revue Archéologique, 1913; p. 7-8).*
- هـ - Sarre (Fr.) und Herzfeld (E.); *Archäologische Reise im Euphrat und Tigris-Gebiet. (Vol. II, Berlin, 1920; p. 164).*

هناك الى بنية المتحف الاسلامي في القصر العباسي .

تألف هذه الكتابة ، من ثمانية أسطر ، طول كل سطر ٣١٠ أمتار . والكتابة ذاتها ، على ما ترى في اللوح ٨ ناثثة ، مكتوبة بخط الثلث الكبير الجميل . ومما يلاحظ في أسطرها انها مؤلفة من ألواح الآجر المهندم المستطيل . وأرضية الاسطر مزدانة بزخارف نباتية محفورة حفرا دقيقا ينسجم هو والكتابة .

وفيما يلي السطر ، نص الكتابة مقروءا على الصورة الفترافية المنقولة عن الاصل :

بسم (١١٧) الله الرحمن الرحيم . قد أشأ هذا المحل رغبة في أن الله لا يضيع (

١ أجر من أحسن عملا ، وطلبا للفوز بجنات الفردوس

٢ (التي أعد) - لها للذين آمنوا (ا و عملوا الصالحات) ت نزلا (١١٨)

٣ وأمر أن تجعل مدرسة للفقهاء ، على المذاهب الاربعة (١١٩)

و - مجلة المعلمين (٢) (١٩٢٦) ص ٣٨٧ - ٣٨٨) في مقال « المستنصرية » للسيد طه الراوي .

ز - مختصر تاريخ بغداد لعلي طريف الاعظمي (بغداد ١٩٢٦) ص ١١٦ - ١١٧) .

ح - لغة العرب (٥) (١٩٢٧) ص ٥٠٥ الحاشية (١) والكلام ليوسف غنيمية .

ط - المدرسة المستنصرية لناجي معروف (بغداد ١٩٣٥ : ص ٦٦) .

ونقل ريموند الففضل الفرنسي في بغداد ، نص هذه الكتابة الى الفرنسية في مؤلفه :

Voyage aux Ruines de Babylon par M. J. C. Riche, Traduit
et enrichi d'observations avec des notes explicatives par
J. Raymond. (Paris, 1818; p. 218).

(١١٧) ما بين القوسين () لا يرى اليوم ، وقد قلنا عن الآلوسى وماسنون .

(١١٨) قابل ذلك بما ورد في القرآن (سورة الكيف . الآية ٣٠) : « ان الذين آمنوا وعملوا

الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . والآية ١٠٨ : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم

جنات الفردوس نزلا » .

(١١٩) من الغريب ان هذا السطر سقط من قراءة الآلوسى .

- ٤ سيدنا ومولانا امام المسلمين ، وخليفة (١٢٠) رب ال (هـ) سالمين
- ٥ أبو جعفر المنصور (١٢١) المنتصر بالله أمير المؤمنين
- ٦ شيد (١٢٢) الله تعالى (١٢٣) معالم الدين بخلود سلطا (نـ) هـ ، وأحيا
- ٧ قلوب أهل (١٢٤) العلم بتضاعف (١٢٥) نعمه واحسانه (١٢٦) وذلك في (١٢٧)
- ٨ سنة ثلثين وستماية ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله .

الكتابة الثانية (١٢٨)

لا أثر لهذه الكتابة اليوم . وقد قال الآلوسى ، وشايه بعض من نقل عنه ، انها مما بقى الى اليوم (١٢٩) على جدار المدرسة المطل على دجلة . وعندنا انها كانت فى محل كتابة السلطان عبدالعزير

- (١٢٠) قرأها فيوله : وخليفتهم . وهذا خطأ .
- (١٢١) هذه اللفظة سقطت فى قراءة الآلوسى .
- (١٢٢) فى هرتسفلد : يشد . وهو تحريف .
- (١٢٣) هذه اللفظة سقطت فى قراءة الآلوسى .
- (١٢٤) ابتداء من السطر الخامس حتى هذه اللفظة ، ساقط من قراءة فيوله وغنية .
- (١٢٥) فى هرتسفلد : بتضاعف . ولا وجه له .
- (١٢٦) فى هرتسفلد : واعانته . وهو يخالف الاصل .
- (١٢٧) عبارة « واحسانه وذلك فى » ، ساقطة فى قراءة فيوله وغنية .
- (١٢٨) ورد نص هذه الكتابة فى :

أ - مساجد بغداد (ص ٨٦) .

ب - Massignon (II, 45).

ج - لغة العرب (٥ (١٩٢٧) ص ٤٠٦) والكلام لمحمود الملاح .

د - المدرسة المنتصية لناجى معروف (ص ٦٥-٦٦) .

هـ - مجلة المعلمين (٢ (١٩٢٦) ص ٣٧٩) فى مقال « المنتصية » للسيد طه الراوى . وقد نقل معظم هذا النص الى الانكليزية فى رحلة :

E. S. Stevens (E. S. Drower): *By Tigris and Euphrates* (London 1923, p. 63-64).

(١٢٩) قيل هذا القول ، مع ان كتاب تاريخ مساجد بغداد للآلوسى ، طبع سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) .

العثماني « التي سنذكرها في الكتابة السابعة ، ولدنا أدلة على ذلك نشير إليها هناك . وفي ما يلي السطر نص هذه الكتابة الزائلة :

« ما شاء الله كان . بسم الله الرحمن الرحيم . ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون . هذا ما أمر بعمله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، الذي طبق البلاد احسنه وعدله ، وغمر العباد برده وفضله ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ، قرن الله تعالى أوامره الشريفة بالنجح واليسر ، وجنوده بالتأييد والنصر ، وجعل لايامه المخلدة جدا لا يكبو جواده ، ولا رائه المجددة سعدا لا يخبو زناده ، في عز تخضع له الاقدار فيطيعه عواصينا ، وملك تخضع له الملوك فيملك نواصينا (١٣٠) ، وذلك في سنة ثلاثين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وعترته وسلم تسليما . »

(١٣١)

الكتابة الثالثة :

وفي الطبقة العليا من نهاية المستنصرية ، كتابة تلاغت بها يد الدهر فشوهتها . وقد كانت تمتد بامتداد وجه المدرسة من جهة سوق الهرج ، قريبا من السطح .

وهذه الكتابة « مكونة بطريقة تختلف عن الطريقة المشبعة في كتابة المدخل : فانها لم تحفر على سلسلة صفائح اعتيادية ، بل تكونت من ترتيب قطع كثيرة من الطابوق على شكل كتابة كبيرة الابعاد . وأما المسافات الباقية بين خطوط الكتابة ، فقد حثت بالطابوق والجص وستررت بصفائح آجرية نقش عليها زخارف هندسية ، (١٣٢) .

والذي يمكن قراءته من هذه الكتابة (انظر اللوح ٩ : د - هـ واللوح ١٠ : أ - ب :

« (. . . الله من عباد (هـ ؟) . . . بانشائه ؟ طلبا لث) -واب (١٣٣) الذي يعمل لمثله العاملون

(١٣٠) في « المدرسة المستنصرية » لناجي معروف : نواحيها ، بالحاء المهملة . والصواب بالصاد المهملة كما في أعلاه . وهو من السجع المتوازي « عواصينا » .

(١٣١) هذا النص ورد في :

أ - Viollet (p. 5).

ب - Sarre u. Herzfeld (II, 163-164).

ج - لغة العرب (٥) (١٩٢٧) ص ٥٠٥ - ٥٠٦ . الحاشية (١) .

د - رسالة « المدرسة المستنصرية » لناجي معروف (ص ٩٨) .

(١٣٢) دليل دار الآثار العربية في خان مرجان ببغداد (بغداد ١٩٣٨ ! ص ٢١ واللوحة ١٤) .

(١٣٣) ما بين القوسين لا يقرأ في الاصل الشبقي . وقد نقلناه من فيوله . قلت : فيه دليل على آية « انما

يخشى الله من عباده العلماء » وكتابتها بالوفاة عند السماء في ابواب المدارس (م ج) .

وتحريضا (١٣٤) على فض ٠٠٠٠ على هل (ب) ستوى الذين (١٣٥) ٠٠٠٠٠ (النصور المستنصر) - (١٣٦) بالله أمير المؤمنين ، أدام الله اعصام الاسلام بحبله المتين .
وهذه الكتابة ، نقلتها من هناك ، مديرية الآثار القديمة العراقية ، ووضعتها في خان مرجان سنة ١٩٣٦ (انظر الموح ٩ د - هـ واللوح ١٠ أ - ب) ثم نقلتها من هناك الى المتحف الاسلامي في القصر العباسي سنة ١٩٤٢ .

ويبدو لنا من الصور التي نشرها في قوله في الصفحة ٦ من مقاله التي أشرنا إليها ، ان جوانب من هذه الكتابة ، كانت لا تزال مرئية في سنة ١٩١٣ ، ولكنها في سنة ١٩٣٦ كانت مخفية .

الكتابة الرابعة (١٣٧)

أصبحت هذه الكتابة ، بعد عبث العابثين بالمستنصرية ، ضمن « قهوة المميز » عند رأس الجسر . وهي على جدار هذه القهوة ، على الشط . والقهوة وقف على الجامع العادلي ، وهو مستأجر الآن . لقد ذهبت أقسام من هذه الكتابة ، والذي يقرأ منها اليوم هو ما يأتي (انظر اللوح ٩ : أ - ب - ج) :

« ٠٠٠ (ظهر في عسره) (١٣٨) الزاهر ، لاجئا الى حرم أمين وركن شديد ، وذلك في سنة ثلثين وستماية ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله » (١٣٩) .

الكتابة الخامسة :

لا وجود لها الآن . ولكن عندما زار بغداد الرحالة تيهير ، سنة ١١٤٦ هـ (١٧٥٠ م) ،

(١٣٤) في فيوله : تحريضا .

(١٣٥) في هرتسفلد ورسالة «المدرسة المستنصرية» : « عرس بحر الدين » وهو تحريف ظاهر . والضواب

« هل يستوى الدين » وهذه متطمة من الآية « فن هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (سورة الزمر . الآية ٩) .

(١٣٦) ما بين القوسين من فيوله .

(١٣٧) ورد هذا النص في :

أ - Massignon (II, 46).

ب - Sarre u. Herzfeld. (II. 162).

(١٣٨) ما بين القوسين منقول من ماسنيون و«عروف» في عهده الزاهر .

(١٣٩) ان قسا من هذا النص ظهر في الصورة المطبوعة في الصفحة ٦٠٥ من رحلة :

Dieulafoy (Mme Jane); *La Perse, la Chaldée et la Susiane*
(Paris, 1887).

تقل هذه الكتابة من المستنصرية ، واليك نص ما وجدته (١٤٠) :

« قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتسمى المدرسة العظمى (من مكن) (١٤١) دولة العز وأسد الخلائق (ب) المحجة البيضاء ، (الحظي) عند الله وخليفته في أرضه، الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ، أمتع الله المسلمين بأعزاز سلطانه ، وأبد دولته بطول حياته ، وذلك سنة ست مائة وثلاثين ، (١٤٢) .

السكنازة الممارسة

الجهة الجنوبية من المدرسة ، بنى بحداثتها رواق كبير مستحدث . ويرى في أعلى هذه الجهة من داخل الرواق ، آثار كتابة تحف بها زخرفة .

أنا نعتقد ان هذه الكتابة كانت تمتد بامتداد الجهة . ولكن مرور الايام قد محت بعضا منها ، كما ان البعض الآخر قد اختفى تحت طبقة الجص التي طلى بها الجدار قصد تقويته ! ولو أن طبقة الجص هذه قلمت بعناية ، لامكن قراءة النص بوجه أتم يمكن أن نخرج منه بفائدة تاريخية . أما ما يمكن قراءته منه الآن ، فهو :

« . . . سنة . . . وثلثين و (ست) (مائة) وا . . . »

ولم نجد بين من كتب في تاريخ المستنصرية من الباحثين ، من أشار الى هذه الكتابة .

Niebuhr; *Voyage en Arabie*. (Vol. II, p. 241). (١٤٠)

وقد نقلها عنه ماسيون . (Mission, II, 47) . وأورد منيان ترجمة هذه الكتابة الى الانكليزية في

رحلته الموسومة :

Mignan; *Travels in Chaldaea*. (London 1829, pp. 97-98).

(١٤١) نقل الاب انستاس ماري الكرملى هذه الكتابة عن نيبهر ، في مجلة المشرق (١٠) (١٩٠٧)

ص ٣٩٣ . وقد عقب عليه بقوله : « والظاهر ان الذي كتب لنيبهر هذه الكتابة كان جاهلا ، ولا أظن انه نقل ما كان مكتوبا هناك بحرفه بل بعبارة . وان كان نيبهر يقول انه قابلها على الاصل ، لان الاغلاط الموجودة فيه ، وركاكة العبارات تشهد بذلك . فما وضعناه بين معكنتين هو من زياداتنا لتقويم العبارة . والناقل كان قد كتب العظمى : العطاء . وستمائة : سنة مائة » ١ ع .

(١٤٢) كذا بتقدير ست مائة على ثلاثين . وهذا بخلاف النصوص الاخرى التي تذكر التاريخ « ثلاثين

وستمائة » .

(١٤٣)

الكتابة السابعة

على جدار الكمرک ، المطل على دجلة ، كتابة حديثة العهد بالنسبة الى رفيقاتها المذكورة سابقا ، لانها كتبت سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) في عهد السلطان عبدالعزيز العثماني (١٤٤) . وهي تتألف من سطر واحد طوله يكاد يكون طول المدرسة (انظر اللوح ١١) .
وهذا السطر المحدث ، كتب في ما يرى ، بمكان كتابة قديمة من عهد المستنصر ، تلك التي أوردنا نصها في « الكتابة الثانية » .

والاسباب التي تحصلنا على أن هذه كتبت بسان تلك ، هي :
أولا - ليس من المعقول في مثل هذه البناية ، أن تخلو أبرز جهاتها وأجملها ، وهي جهة النهر ، من كتابة تظهر للعيان لتخدد اسم بانيتها وتؤرخ ببنائها .

ثانيا - ولقد مر بنا ، ان جهة المستنصرية الشرقية ، والجنوبية ، كانتا مزداتين بشرط من الكتابة . فلا غرو أن تكون الجهة الغربية على هذا الفرار .

ثالثا - وهو دليل محسوس ، يراد كل منا إذا عمل النظر قليلا في كتابة عبدالعزيز العثماني ، فان هذه الكتابة تبدأ بالعبارة التالية :

« ما شاء الله كان . بسم الله الرحمن الرحيم . ولتكن . . . » وإذا نظرنا الى صورتها الفترافية في اللوح ١١ أ) ، ألفيناها بزخرفتها وكتابتها قديمة العهد ، لا تختلف عن سائر الكتابات التي انتهت اليها من عهد المستنصر . وهي في الوقت نفسه تختلف سائر كتابة عبدالعزيز (انظر اللوح ١١ - ب واللوحة ١٢ - أ) في اسلوب كتابتها وزخرفتها . فلما أراد عبدالعزيز تخليد اسمه على جدار هذه المدرسة ، محا ما كان متبقيا في زمنه من سائر هذه الكتابة - هذا اذا لم يكن ممحوا قبل عهده - ثم كتب مكانه هذا النص :

« ما شاء الله كان . بسم الله الرحمن الرحيم . ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون (١٥٥) . قد كان اشيء هذا البناء في أيام خلافة

(١٤٣) ورد نص هذه الكتابة . في :

أ - المشرق (١٠) (١٩٠٧) ص ٣٩٣ بالعائنية . والنقل لاب أستاس الكرملي
ب - Sarre u. Herzfeld (II, 162).

ج - المدرسة المستنصرية لناحي معروف (ص ٦٩ - ٧٠) .

(١٤٤) حكم من سنة ١٢٧٧ الى ١٢٩٣ هـ (١٨٦١ - ١٨٧٦ م) .

(١٤٥) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

عبدالله أبي جعفر المنصور المستنصر بالله العباسي ، في سنة ثلاثين وستمائة . وقد تجدد تعميره في زمن خلافة ظل الله الاعظم الممدود ظل رافته على مفارق الامم ، مجدد قوانين أجداده العظام سلاطين آل عثمان ، مجدد جهات العدل والاحسان السلطان بن السلطان حضرة السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان الغازي محمود خان ، لا زالت البلاد بعداته معمورة ولا برحت العباد بفيض احسانه معمورة أمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وكان ذلك في سنة اثنتين وثمانين ومائتين (١٤٦٦) وألف . كتبه المذنب بكر الصدقي عفي عنه .

١٠ - زخارفها

يلاحظ ان جدران الطبقة العليا من المستنصرية ، مزخرفة من خارجها بزخارف اعتيادية تماثل في بعضها وتختلف في بعضها الآخر . وهي الزخرفة المعروفة اليوم بين البنائين بـ « الحصري » ، فكأنها في تكوينها أشبه شيء بنسيج الحصر (انظر اللوح ٦ ب - ج) .

وأجمل زخارف المستنصرية الآن ، هي التي ترين بواطن الاواوين (اللوح ٤ أ - ب ، واللوح ٥ ، واللوح ٦ أ) ، ووجوه بعض الخنايا والابواب (اللوح ٢ ب ، واللوح ٣ - أ) وقد مر بنا وصف ذلك في مواضعه المختلفة من هذا البحث .

وما من شك ، في أن كثيرا من زخارف المستنصرية قد تلف بفعل العوامل المختلفة وضاع ، فحسرتنا بضياعه عنصرا ثميننا من عناصر الفن الاسلامي ، مما لا يعوض عنه .

تمتاز أغلب هذه الزخارف ، بكونها محفورة في الآجر . وصناعة حفر الآجر بهذا الوجه الدقيق من الصعوبة بسكان . وها ان بنائي اليوم حينما يريدون تقليد قطعة من هذه الزخرفة ، يلتفت عليهم الامر ، وهينات أن يبلغوا في الدقة شأو تلك القديمة !

وزخارف الآجر في هذه المدرسة تذكرنا بزخارف القصر العباسي في قلعة بغداد . ففي كليهما تبدو الزخرفة العربية بأجلى مظاهرها ، ونرى الفن في ذلك قد بلغ حدا قل أن نجد ما يماثله في المباني الاسلامية في العراق .

وان ما نراه من زخارف المستنصرية اليوم ، لخير نموذج للزخارف الاسلامية في العراق ، في المائة السابعة للهجرة (المائة الثالثة عشرة للميلاد) . فاذا قايسنا بالزخارف المكتشفة في سامراء ، وهي من أعاجيب الفن في المائة الثالثة للهجرة ، وجدنا بينهما فروقا واختلافات جمة . فزخارف

سامراء كانت من الجص ، وهي تتألف في الغالب من أوراق وعناقيد ووظائف (١٤٧) .
 أما زخارف المستنصرية فتكون من قطع الآجر المهندمة بأشكال وحجوم مختلفة ، المحفورة
 زخارف هندسية ونباتية تتفاوت في الحجم والعمق . وهذه القطع ، بعد أن تتم زخرفتها على
 انفراد ، كانت تجتمع بحساب بعضها إلى بعضها ، وتلتصق بالجص في وجه الجدار أو السقف
 المراد زخرفته . فيقوم من مجموعها زخرفة عامة متألقة لا تكاد العين تشبع من النظر إليها .
 وقد تساقطت هذه الزخارف من الجدار ، فيبدو الجدار من خلفها بنائه المجرد الساذج
 (انظر اللوح ٣ أ ، واللوح ٤ أ - ب) .

١٤ - مدرستو المستنصرية

لبث التدريس في المستنصرية ، سائرا سيرا حسنا بضع مئات سنين ، حفلت المدرسة في خلالها
 بجمهرة من أكابر علماء عصرهم الذين عين عليهم في تدريس فروع العلم المختلفة فيها .
 وفي كتب تاريخ الدول الإسلامية وتراجم أئمتها ، ذكر لعدد غير من هؤلاء المدرسين . وما
 من شك ، في أن جمع أخبارهم وتدوين تراجمهم بوجه واف قد يملأ مجلدا ضخما ، وهذا ليس
 من شرط بحثنا .

وهؤلاء العلماء الذين درسوا في المستنصرية ، فخلد التاريخ ذكرهم في صحائفه ، بلغوا فيما
 وقفنا عليه ، نيفا وعشرين ومائة رجل ، أقدمهم شهدوا تأسيس المستنصرية في المائة السابعة ،
 وأحدثهم من أبناء المائة التاسعة للهجرة . لقد طالعت تراجم هؤلاء في مختلف المظان التاريخية ،
 فبدأ لنا من ذلك كله ، انه لم يكن يعين للتدريس في هذه المدرسة ، الا من اتصف بساتة الخلق
 وعرف بوفرة التحصيل وغزارة العلم وسعة الاطلاع . فلا مرأ أن تكون هذه المؤسسة ، في ماضيها ،
 موثلا للعلم ونارا يسير يهديه طلاب المعرفة من مختلف الانحاء .
 شهدت هذه المدرسة طائفة كبيرة من المدرسين المنتمين الى المذهب الشافعي والمذهب الحنفي ،
 والحنبلي ، والمالكي .

ونكتفي في هذا الصدد بذكر أقدم من درس فيها . فقد رتب لها حين افتتاحها « مدرسان
 وثالثا تدريس كما ذكرنا . أما المدرسان فحبي الدين أبو عبدالله محمّد بن يحيى بن فضلان
 الشافعي ، ورشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد القرعاني الحنفي وأما الثالثان فجمال

الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن يوسف بن الجوزي (١٤٨) الحنبلي ، نياابة عن والده لانه كان مسافرا في بعض مهام الديوان ، والآخر أبو الحسن على المغربي المالكي (١٤٩) .

فالمدرسان حين فتح المدرسة ، كانا للشافعية والحنفية . « وأما المالكية ، فلما فتحت لم يكن لهم مدرس يذكر الدروس ، فذكر المدرس لهم فقيه مغربي اسمه محمد وكان معيدا الى أن اخرج من المدرسة بعد سنة واحضر عبدالرحمن بن محمد بن عمر من البصرة وجعل تانيا المدرس بها مدة مديدة الى أن حضر فقيه مالكي من أهل الاسكندرية اسمه عبدالله بن عبدالرحمن بن عمر فدرس بها يوم الخميس عشر صفر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة » (١٥٠) .

فالذي كان يتبع في المستنصرية ، أن يكون فيها « مدرس » و « نائب » و « معيد » هذا وقد سبق أن ذكرنا « الطيب » و « راوي الحديث النبوي » و « ملقن القرآن » .

١٥ - شروط المدرسة

للمؤرخ البغدادي الذائع الصيت ، تاج الدين علي بن أنجب ، المعروف بابن الساعي ، المتوفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، كتاب في مجلد واحد ، عنوانه « شرط المستنصرية » (١٥١) . وهذا السفر ضاع فيما ضاع من تراث الأقدمين ، ولولاه انتهى الينا لأفادنا أجل الفائدة في معرفة ماضي هذه المدرسة ولا سيما ما كان يتعلق بشروطها .

ولكننا بفقد هذا التأليف النفيس ، لم نفقد كل شيء . فان بعض المؤرخين الذين دونوا تواريخهم من بعده ، لم يحرمونا معرفة الشروط التي شرطها مؤسس هذه المدرسة ، ليسار بموجبها .

(١٤٨) هو حفيد الامام ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) صاحب « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » .

وقد اشترك الجد والحنيد بالاسم والكنية واللقب .

(١٤٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٥) .

(١٥٠) الجواهر المسية في طبقات الحنفية لحيي الدين القرشي (١ : ٣٩٦ طبع حيدر آباد) .

(١٥١) الظاهر ان الحاج خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ م) ، كان قد وقف على هذا

الكتاب ، فانه نقل من أوله قول المؤلف : « حمدا لبني من على عباده » . وذكر أيضا ان المؤلف ، أي ابن الساعي ،

سمى كتابه هذا « مفاتيح الجنان ومصابيح الجنان » (كشف الظنون ٤ : ٢ ؛ طبعة فلوجل)

لقد دون غير واحد من المؤرخين (١٥٢) شروط هذه المدرسة ، ولكنهم اختلفوا في ايرادها ، فمنهم من أسهب وتفصل ، ومنهم من أوجز واختصر . وعندنا ان أوفى من أورد هذه الشروط ، من المؤرخين الذين وقفنا على تصانيفهم ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) فقد ذكر شروط المدرسة المستنصرية ، نقلا عن ابن الساعي ، في حوادث سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) ، قال ما هذا نصه بالحرف الواحد (١٥٣) :

« وشرط الواقف عظم الله أجره ، أن يكون عدة النتهاء بها مائتين وثمانية وأربعين رجلا ، من كل طائفة اثنان وستون ، وان يجري لكل واحد منهم في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طيخ مما يطبخ في مطبخها ، وفي كل شهر ديناران غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت . وأن يكون لكل طائفة مدرس وأربعة معيدين ، وأن يكون لكل مدرس في كل يوم عشرون رطلا من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بخضرتها وحواشيها وسحبها . وفي كل شهر اثنا عشر دينارا . وان يكون لكل معيد في كل يوم سبعة أرطال خبزاً وغرفان طيخاً ، وفي كل شهر ثلاثة دنابر ، وأن يكون في دار القرآن المجيد شيخ يلقن القرآن وتلاوته صيا أيتاما ومعيد يحفظ الثلاثين ، ويكون للشيخ كل يوم سبعة أرطال خبزاً وغرفان طيخاً وفي الشهر ثلاثة دنابر . وللمعيد في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طيخاً وفي كل شهر دينار وعشرون قيراطاً ، وللصبيان كل صبي في كل يوم ثلاثة أرطال خبزاً وغرف طيخاً وكل شهر ثلاثة عشر قيراطاً ووجه . »

« وأن يكون في دار الحديث النبوي شيخ عالي الاسناد يشغل بعلم الحديث ، وقارئ وطلبة . ويكون للشيخ المسمع في كل يوم ستة أرطال خبزاً ورطلان لحم ، وفي كل شهر ثلاثة دنابر وللمشتغلين لكل واحد منهما في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طيخاً وفي كل شهر ديناران

(١٥٢) أنظر مثلاً :

- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٨ : ٤٨٩) .
- تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٤٢٥) .
- الحوادث الجامعة (ص ٥٨ - ٥٩) .
- البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .
- خلاصة الذهب المسبوك (٢١٢) .
- تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٣٠٦ - ٣٠٧) .

(١٥٢) نقل هذا النص ، عن الاصل المخطوط في « الخزانة الاحمدية » بحلب ، محمد راغب الطباخ ، في نبذة عنواها « المدرسة المستنصرية » ، شرعا في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٤ : ١٩٢٤) ص ٤٠ - ٤٣ . وقد نقل هذا النص ، ا. الألويسي في مساجد بغداد (ص ٨٧ - ٨٩) .

وعشرة قراريط ، وللقارىء في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طيخا وكل شهر ثلاثة دنائير .
وللمطلبة أسوة الايتام الذين يتلقون القرآن في الخبز والغرف والمشاهرة .
« وأن يكون لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزا وأربعة لحما ، وفي كل شهر عشرة دنائير .

« وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كل يوم خمسة أرطال خبزا ورطلان لحما وفي كل شهر ثلاثة دنائير . وأن يكون للمناول في هذه الخزانة في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طيخا وفي كل شهر ديناران .

« وأن يكون بها نحوى يشغل بعلم العربية يكون له في كل يوم ستة أرطال خبزا ورطلان لحما بحوائجها وخضرها وحطبها وفي كل شهر ثلاثة دنائير .
« وأن يكون بها طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس بعلم الطب أسوة طلبة الحديث في الخبز والطبخ والمشاهرة .

« وأن يكون بها من كل طائفة امام يصلى بهم وقارىء للبيعة وداع يدعو ، وأن تضاعف المشاهرات في رمضان ، وأن يكون للناظر المسرب في كل يوم عشرون رطلا خبزا وخمسة أرطال لحما بحوائجها وخضرها وحطبها وفي كل شهر اثنا عشر دينارا . وللمشرف في كل يوم عشرة أرطال خبزا وثلاثة أرطال لحما وفي كل شهر سبعة دنائير . وللكاتب في كل يوم مثل المشرف . ومعمارية وفراشون وبوابون وحمامي ومزين وقيم وطباخ وعلامه وخازن الآلات وخزنة الديوان وغللمان الديوان ومرملاتي (١٥٤) ومؤذن ونقاط (١٥٥) وقدر لهؤلاء كلهم جرايات ومشاهرات .

« وأما الدار المجاورة لهذه المدرسة في الحد الاعلى منها ، لم ير مثلها أحد ولا لادراك وصفها أمد . وهذه الشروط نقلتها من تاريخ ابن الساعى « اهـ .

١٦ — ماذا كان يدرّس فيها ؟

مرت الإشارة الى تدريس بعض الفروع العلمية في المستنصرية ، كتدريس القرآن ، والحديث ، والطب . وهناك فروع اخرى تطرق لذكرها بعض المؤرخين . فمما شرطه المستنصر

(١٥٤) لعله يقصد به : الذى يعاد الرامل بالرمل ويوزعها على الناسخين . أو لعل الاصل « المزملاى » وهو من يتعهد المزملاى بالماء .

(١٥٥) لعل الصواب : نقاط (بالفاء) وهو الذى يتولى أمر التنوير بالنقط .

« أن يكون بها من يشتغل بعلم الفرائض والحساب الى غير ذلك مما اذا استقصى ذكره طالع
تعداده » (١٥٦) .

وفي بعض المراجع القديمة ، تنويه بهاتيك الفروع . فذكرت ان المستنصرية « مجمع سائر
الدين ومذاهب المسلمين وعلم الاصول والفروع المتفرق فيها والمجموع وعلم الفرائض وأحاديث
الرسول ومعرفة الحلال والحرام وعلم الحساب والمساحات وعلم الطب ومنافع الحيوان وحفظ
قوام الصحة وتقويم الابدان » (١٥٧) .

هذا وما لا شك فيه ، ان علوم اللغة من صرف ونحو وبلاغة وغيرها ، وفروع الفقه ، كان
لها أعظم الشأن أيضا في هذه المدرسة الجامعة .

١٧ — المستنصرية في مختلف العصور

ليس بالامكان تدوين تاريخ هذه المدرسة تدوينا ملاحم الاجزاء ، منذ تأسيسها الى هذا اليوم ،
لان بعض حلقات تاريخها الطويل ، ما زالت غامضة أو ضائعة . ومع ذلك ، سنذكر في هذا الفصل
أهم ما وقفنا عليه في بطون الكتب المختلفة من الاخبار والاشارات الواردة بصدها ، نوردها بحسب
سياقتها التاريخية .

مركز تحقيقات كميونر علوم إسلامي

أولاً — أخبارها في المائة السابعة للهجرة :

في سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) : فتحت المدرسة المستنصرية بالوجه الذي فصلناه في الفصل
السابع من هذا البحث .

وفي سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) : تكامل بناء الايوان الذي فيه ساعة المستنصرية (انظر
التفصيل في الفصل العاشر) .

وفي هذه السنة أيضا ، « سأل ناصر الدين (ملك دمشق) في مدة اقامته ببغداد ، أن يحضر
المدرسة المستنصرية . فأمر الخليفة بعمل دعوة واحضار فقهاء المدارس . ثم حضر ناصر الدين ،
فجلس على طرف ايوانها الشمالي ، ووقف مماليكه وأصحابه في ربيعي المالكية والخفية ، ووقف
عند كل طائفة حاجب ، وحضر قراء انديوان ، وقرئت الختمات ، وأنشد جماعة من الفقهاء قصائد ،

(١٥٦) الحوادث الجامعة (ص ٥٩) .

(١٥٧) خلاصة الذعب السبوك (ص ٢١٢) .

ثم قدم المشروب وبعده أنواع الاطعمة ، فتناول ناصر الدين من ذلك بعد أن قبل الارض مرارا ، فلما فرغوا من ذلك انصرف الى داره ، (١٥٨) .

وفي مدة اقامة الامير ركن الدين اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في بغداد ، عملت له (سنة ٦٣٣ هـ) دعوة في المدرسة المستنصرية ، فحضر وجلس على ايوانها ، وقرأ القراء ، وذكر المدرسون الدروس ، ثم طيف به في رواقها ، (١٥٩) .

وفي سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) : عمل لنور الدين ارسلان شاه بن عماد الدين زنكي صاحب شهرزور ، دعوة بالمدرسة المستنصرية ، وحضر اليها ، وجلس على طرف ايوانها الصغير ، وقرئت الربعات ، وقرئت الختمات ، وذكر المدرسون بها الدروس ، ثم نهض فدخل دار كتبها فجلس بها ساعة ، ثم خرج متوجها الى داره ، (١٦٠) .

وفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) : وقعت صاعقة في شباط على الرواق بالمدرسة المستنصرية ، فسقت منه موضعا ، (١٦١) .

وفي سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) : « فتح باب مخزن المدرسة المستنصرية المقابل لباب سوق المدرسة ، وأخذ منه نحو اربعمائة رطل شعرا معمولا ، وحدود ثلثمائة رطل سكرا ، ومبلغ ثلثمائة دينار ، وثلاثون مصمتا طبرية . وقيل ان جوقية الرندي فعلوا ذلك » (١٦٢) . وقد ذكرنا هذا الخبر والاحبار الاربعة التي سبقته في مطاويي بحثنا .

وفي سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) : « أحضر مدرسو المستنصرية الى دار الوزير ، وتقدم اليهم أن لا يذكروا شيئا من تصانيفهم ، ولا يلزموا الفقهاء » (١٦٣) بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام المشايخ تأديبا معهم وتبركا بهم . وأجاب جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي (١٦٤) مدرس الخبلة بالسمع والطاعة ، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبدالله الترمساحي ، وقال : « ليس

(١٥٨) الحوادث الجامعة (ص ٧٨) .

(١٥٩) الحوادث الجامعة (ص ٨٠ - ٨١) .

(١٦٠) الحوادث الجامعة (ص ٨٩) .

(١٦١) الحوادث الجامعة (ص ١٠٠) .

(١٦٢) الحوادث الجامعة (ص ١٣٦) ولنا تعليقات على هذا الخبر في كلامنا على « المخزن » في

الفصل الثامن .

(١٦٣) يريد بهم : الطلبة .

(١٦٤) مر بنا انه حفيد الامام ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ .

لاصحابنا تليقة ، فأما النقط من مسائل الخلاف فمما أرتبه « فبان بذلك عذره • وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية وأقضى القضاة عبدالرحمن بن المسغاني مدرس الحنيفة ، فانهما قالا ما معناه « ان المشايخ كانوا رجالا ونحن رجال » ونحو ذلك من ايهام المساواة . فانتهت صورة الحال ، فتقدم الخليفة أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم ، فأجابوه بالسمع والطاعة « (١٦٥) •

وفي سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) : « تواترت الفيث (وفاض دجلة) •••• ونبع الماء من أساس حائط المدرسة المستنصرية ، ومن دار ستقرجا زعيم خوزستان المجاورة للمستنصرية ، ومن مسجد الحظائر (١٦٦) المعروف بام الناصر المجاور لهذه الدار ، وامتلأت الطريق ، وامتع الناس من الجواز الى هناك من باب سوق المدرسة الى باب مشرعة الابريين « (١٦٧) •

• وفي سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) : « توفي شرف الدين اقبال اشرايى •••• بنى بواسطة مدرسة على شاطئ دجلة بالجانب الشرقي ، وعمر الى جانبها جامعاً ، وبنى ببغداد مدرسة في سوق السلطان •••• وجلس الوزير وأرباب المناصب في العراء بالمدرسة المستنصرية « (١٦٨) •

وفي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) : « زادت دجلة زيادة عظيمة •••• وكان علو الماء في المدرسة النظامية زيادة على أربعة أذرع •••• وصلى الناس عدة جمع في المدرسة المستنصرية ، وكان الناس يحضرون بالسفن ، فامتلات المدرسة وعشق بابها ، واتصلت الصفوف في السفن من باب المستنصرية الى سوق المدرسة والى آخره « (١٦٩) •

وفي سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) : « لما فتح السلطان هلاكو ببغداد سنة ٦٥٦ هـ ، أمر أن يستفتى العلماء ، أيما أفضل : السلطان الكافر العادل ، أم السلطان المسلم الجائر ؟ ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك • فلما وقتوا على الفتيا ، أحجموا عن الجواب • وكان رضى الدين على ابن طاووس حاضرا هذا المجلس ، وكان مقدما محترما • فلما رأى احجامهم ، تناول الفتيا ، ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر ، فوضع الناس خطوطهم بعده « (١٧٠) •

وفي سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) : « عمل زولاب تحت مسناة المدرسة ، يقبض الماء من دجلة

(١٦٥) الحوادث الجامعة (ص ٢١٦ - ٢١٧) •

(١٦٦) هذا يوافق مسجد الخنائين في جنوبي المستنصرية (الناشر) •

(١٦٧) الحوادث الجامعة (ص ٢٣١) •

(١٦٨) الحوادث الجامعة (ص ٣٠٨ - ٣٠٩) •

(١٦٩) الحوادث الجامعة (ص ٣١٧ - ٣١٨) •

(١٧٠) الفخرى لابن الصنطقى (ص ١٥) •

- ويرمى الى مزملتها . (راجع موضوع « المزملة » في الفصل الثامن) .
- وفيها أيضا ، جدد تطبيق صحن المدرسة ، وتبنيدها (راجع موضوع « المزملة ») .
- وفي سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) : « وصل السلطان أباقا خان الى بغداد وأمر بالاحسان الى الرعايا وتخفيف التبعات وحذف الانتقال عنهم ، وكتب ذلك على حيطان باب جامع المستنصرية » (١٧١) .
- وفي سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) : « عين الشيخ محي الدين محمد بن الحيا العباسي خطيبا بجامع المدينة المعروف بجامع السلطان ، ولصلاة العيدين بالمدرسة المستنصرية . وشرط الواقف : أن لا يخطب بها الا هاشمي عباسي . ولم يخطب بالعراق بعد الواقعة (١٧٢) خطيب هاشمي سواه » (١٧٣) .
- وفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣ م) : « سقط بعض الفقهاء بالمدرسة المستنصرية من غرفة الى صحن المدرسة ، فمات في يومه » (١٧٤) .
- وقد ذكرنا هذا الخبر في الكلام على « صحن المدرسة » وأعدناه هنا لسياقة الاخبار .
- وفي سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) : « اشتهر ببغداد ، ان عز الدولة بن كمونة اليهودي ، صنف كتابا سماه « الابحاث عن الملل الثلاث » تعرض فيه بذكر النسوات فنار العوام وهاجوا فركب الامير تمسكاي شحنة العراق ومجد الدين بن الاثير وجماعة الحكام الى المدرسة المستنصرية ، واستدعوا قاضي القضاة والمدرسين لتحقيق هذه . . . » (١٧٥) .
- وفيها أيضا « اجتمع الفقهاء بالمستنصرية على جمال الدين الدستجردى صدر الوقوف ، وتالوا منه وأسموه قبيح الكلام ، فحماه منهم الشيخ ظهير الدين البخاري المدرس وخلصه من أيديهم » (١٧٦) .
- وفي سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) : « دخل السلطان غازان المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة لها » (١٧٧) . وكنا قد ذكرنا هذا الخبر في كلامنا على « خزانة الكتب » .

- (١٧١) الحوادث الجامعة (ص ٣٧٥) .
- (١٧٢) يريد بها سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .
- (١٧٣) الحوادث الجامعة (ص ٣٨٥) .
- (١٧٤) الحوادث الجامعة (ص ٤٢٥ - ٤٢٦) .
- (١٧٥) الحوادث الجامعة (ص ٤٤١) .
- (١٧٦) الحوادث الجامعة (ص ٤٤١ - ٤٤٢) .
- (١٧٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

ثانياً — أمبارها في المائة الثامنة للهجرة :

في سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، زار المدرسة المستنصرية ، الرحالة ابن بطوطة ، فأطرب في وصفها (١٧٨) ، بما كنا نقلنا بعضه في مواطن سقت من هذا البحث .

وفي سنة ٧٤٠ هـ (١٣٢٩ م) ، ذكرها حمد الله مستوفى القزويني ، فقال ان بناءها من أجمل مباني بغداد يومئذ (١٧٩) .

وورد في أخبار مدرسة خواجه معود الشافعي بن سديد الدولة اليهودي ؛ انه بناها في أواخر المائة الثامنة للهجرة ، في عهد السلطان أحمد بن أويس الجلايري ، على صفة المستنصرية (١٨٠) ، وذلك يدل على استمرار المستنصرية على حالها القديم في التدريس .

ثالثاً — أمبارها بعد المائة الثامنة للهجرة :

في أحد الشهور من سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) ، قدم الى القاهرة كتاب أحد المتصرفين المصريين واسمه فخر الدين ابن أبي الفرج ، من بغداد ، وكان في كتابه انه يقيم اذ ذاك ببغداد في المستنصرية ، وكان هرب خوفاً على نفسه (١٨١) . وهذا يدل على حسن حال المدرسة في تلك الايام لان نفقاتها تحمّل نفقة الضيوف فضلاً عن الفقهاء .

وفي سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) كان يحكم بغداد من قبل الفرنسي ، محمد خان التكي . فهذا ، لاسباب سياسية وعسكرية ، صمم على الهزيمة الى ايران . فلما عرض على رجاله أن يرافقوه ، رفضوا طلبه وتمردوا وخلعوا طاعة هذا الخان ، ونظفوا صفوفهم واستولوا على « المدرسة المستنصرية » فجعلوها حصناً لهم (١٨٢) .

(١٧٨) رحلة ابن بطوطة (٢ : ١٠٨ - ١٠٩ و ٣ : ٢٦٩ طبعة باريس) .

(١٧٩) نزهة القلوب (ص ٣٥ طبعة لستريج - ليدن ١٩١٣) .

(١٨٠) مختصر التاريخ الفيائي (ص ١٠ - ١١ من نسخة الدكتور مصطفى جواد) .

(١٨١) اصول التاريخ والادب (١٢ : ٨٨) .

(١٨٢) راجع :

Huart (C.); *Histoire de Bagdad dans les temps Modernes*.

(Paris, 1901; p. 37).

Longrigg (S. H.); *Four Centuries of Modern Iraq*. (Oxford

1925; p. 23).

وترجمته العربية لجعفر خياط : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (بغداد ١٩٤١ : ص ٢٥) .

Coke (R.); *Baghdad the City of Peace*. (London, 1935; p. 189).

وفي كلامنا على « موقع المستنصرية » ، أشرنا الى « المولايخانة » . وقد ورد في كتاب « كلشن خلفاء » (١٨٢) ، في أخبار سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) : ان باني زاوية الدراويش المولوية ، وهي المولايخانة ، التي كانت فيما سبق قسما من المستنصرية ، هو محمد جلبي كاتب الديوان وكاتم الاسرار عند محمد بن أحمد الطويل . وان محمدا هذا كان مستقلا في بغداد ومتغلبا عليها في تلك السنة . وكانت هذه الزاوية في عهد مؤلف كلشن عامرذ على ما قاله في كتابه الذي يمتد تاريخ حوادثه الى سنة ١١٣٠ هـ (١٧١٧ م) (١٨٣) .

وفي سنة ١٠٥٨ و ١٠٦٦ هـ (١٦٤٨ و ١٦٥٥ م) : جاء الرحالة التركي أوليا جلبي الى بغداد ، فعدت كايا بغداد (١٨٤) ، وفيها « المولويخانة » (١٨٥) .

وفي جهانتما للحاج خليفة (المتوفي في سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ م) ص ٤٥٩ المطبوع في استانبول مع ذيول في المتن نفسه ، (سنة ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م) : ان في بغداد مولويخانة تطل على دجلة في موضع مبهج (١٨٦) .

وفي سنة ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م) انشأ الوزير حسين باشا السلحدار والي بغداد ، سوقا جديدة قرب المستنصرية (١٨٧) ، وهي السوق التي لا بد أن تكون ما يسمى اليوم بسوق الهرج او سوق بيت دانيال بجانيينا التي جدد بناؤها قبل نحو تسعين سنة .

- (١٨٢) تاريخ هام ، ألته باللغة التركية مرتضى أفندي نظمي زاده . وفيه الاخبار منذ تأسيس بغداد الى سنة ١١٣٠ هـ . وقد طبع في استانبول سنة ١٧٣٠ م . ونسخه المطبوعة نادرة للغاية .
- (١٨٣) يعقوب سر كيس في مقاله « المدرسة المستنصرية » . (لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٣٥٨) .
- (١٨٤) رحلة أوليا جلبي (بالتركية) (٤ : ٤٢٠) .
- (١٨٥) يعقوب سر كيس في مقاله المذكور (ص ٣٥٨) .
- (١٨٦) يعقوب سر كيس في مقاله المذكور (ص ٣٥٨) .
- (١٨٧) راجع :

Huart; *Histoire de Bagdad*. p. 130.

وما ورد في هذا المرجع منقول من كلشن خلفاء .

Coke; *Baghdad the City of Peace*. p. 216-217, 327.

والمراجع غير متفقة على سنة تعيين حسين باشا السلحدار لولاية بغداد . ففي الدر المكنون لياسين العمري ، انه ولي بغداد سنة ١٠٨١ هـ (١٦٧٠ م) . وفي بعض سالنات بغداد (راجع مثلا الصادرة في سنة ١٣١٨ هـ ، ص ٢٠٦) انه ولي بغداد سنة ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤ م) .

وفي كلشن خلفاء انه تولاهما في محرم سنة ١٠٨٢ هـ ، وانتهت ولايته في ٢٠ جمادى الاولى سنة

وفي سنة ١١٤٦ هـ (١٧٥٠ م) زار بغداد الرحالة نيهير ، فرأى مطبخ المستنصرية محلا للوزن والقبانة (١٨٨) . ونسخ عن بعض جدرانها كتابة لا أثر لها اليوم . وقد نقلنا نصها منه في كلامنا على « كتابات المستنصرية » .

وفي أيام ولاية أبي سعيد سليمان باشا الكبير (١١٩٣ - ١٢١٧ هـ = ١٧٧٩ - ١٨٠٢ م) جعل المدرسة المستنصرية « خانا » ، ووقفها على مدرسته المعروفة بالسليمانية (١٨٩) .

وفي سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) : زار الرحالة الانكليزي ايفرز مدينة بغداد ، فألفى المستنصرية « خانا » ، وصفه بأنه واسع ، على البنيان ، مردان بزخارف قديمة . وان الآجر الذي بنى به يبدو جديدا ، كان لم يفض على صنعه الا سنوات قلائل (١٩٠) .

وفي سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ م) : زار الرحالة الانكليزي بكنكهام المدرسة المستنصرية ، فوجدها في خراب شديد ، ورأى جانبا منها قد اتخذ خانا . وذكر ان على جبهتها النهرية كتابة كوفية (كذا . والصواب انها بخط الثلث) على الآجر ، أرضيتها مزخرفة . وقد امتحت الكتابة في كثير من المواضع . وقال ان هذه البنية من أهم ما في مدينة بغداد (١٩١) .

وقال ريموند ، فنصل فرنسا في بغداد في اوائل القرن التاسع عشر ، ان المولاخانة ، تكية للدرأويش ، لا يفصلها من المدرسة المستنصرية الا طريق يفضي الى الجسر ، والظاهر انها منها (١٩٢) . وقد اتصل به ان المولاخانة كانت تجاهم لطلاب المستنصرية (١٩٣) .

Niebuhr; *Voyage en Arabie*. II, 241.

(١٨٨)

(١٨٩) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٨) .

Evers (Lieut. Samuel); *A Journal Kept on a Journey from Bassora to Bagdad ... in the Year 1779*. (Horsham, 1784; p. 50).

(١٩٠)

ولما أن تذكر ان الرحلة ضمت غفلا عن اسم صاحبها .

Buckingham (J. S.); *Travels in Mesopotamia*. (London, 1827; p. 406).

(١٩١)

ونحن نرى ان الكتابة المشتملة التي رآها بكنكهام ، هي الكتابة « الثانية » التي أوردناها في الفصل الخاص بكتابات المستنصرية . تم قلعت بنياها في زمن السلطان عبدالعزيز ، ودون غيرها على هذا الجدار سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) كما أسلفنا القول عليه في الكتابة « السابعة » من الفصل المذكور .

Raymond; *Voyage aux Ruines de Babylon* par M. J. C. Riche. (Paris, 1818; p. 156 et 218).

(١٩٢)

(١٩٣) يعقوب سرقي في مقال المدرسة المستنصرية (لغة العرب ٦ : ٣٥٧ - ٣٥٨) .

- وعندما زار روبرت ميان مدينة بغداد في سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ، تكلم على المدرسة المستنصرية ، فقال انها الآن « خان » . أما « مطبخها القديم » فدار للمكوس (١٩٠) .
- وفي سنة ١٢٥٧ هـ (١٨٤١) قدم الى بغداد ، الرحالة الانكليزي فريزر ، فرأى المدرسة المستنصرية حينذاك دار للمكس (١٩٥) .
- وفي نحو اواسط القرن التاسع عشر ، ذكر البحائمه الفرنسي هوفر ، ان المستنصرية كانت حينذاك مخزنا للكمرك (١٩٦) .
- وفي سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) زار الرحالة فيلكس جونس مدينة بغداد ، فرأى بقايا المستنصرية متداعية (١٩٧) .
- ومن بعد ذلك ، استأجر المجلس العسكري ، المدرسة المستنصرية من دائرة الوقف ، وجعلها « مخزنا » للملابس الجنود . كما انه أسكن فيها كنيه من جنود الموصل ، فصارت المستنصرية تعرف من ذلك اليوم بـ « خان المواصلة » . وقد دفع المجلس بدل الاستئجار عدة سنوات لدائرة الوقف ، ثم قطع ذلك وأعرض عن الاداء (١٩٨) .
- وفي سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣) ، تجرأ المجلس العسكري المذكور ، برئاسة القائد التركي رجب بشا ، على بيع المدرسة المستنصرية من « دائرة الرسومات » بمبلغ ألف وخمسمائة ليرة عثمانية ؛ وذلك من غير استفتاء ذوى الشأن ، اذ انها من الوقوف التي لا يحل بيعها (١٩٩) .
- وفي سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) رأت دائرة الاوقاف ، أن الفرصة قد حانت للطلبية بالمستنصرية ، فأقامت الدعوى على ثبوت وقفها ، وساعدها على ذلك جمهور من رجال العلم والادب

Mignan (Capt. Robert); *Travels in Chaldaea, including a Journey from Bussora to Bagdad, Hillah, and Babylon, performed on Foot in 1827* (London, 1829; p. 97).

Fraser (J. Baillie); *Mesopotamia and Assyria*. (New York, 1865; (١٩٥) p. 235).

Hofer (M. Ferd.); *Chaldée, Assyrie, Médie, Babylonie, Mesopotamie, Phénicie, Palmyrène*. (Paris, 1852, p. 343).

Memoirs by Commander James Felix Jones. (Bombay, 1857; (١٩٧) p. 319).

(١٩٨) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٨) ، والمدرسة المستنصرية لناجي معروف (ص ٦٠ - ٦١) .

(١٩٩) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٨) ، ومختصر تاريخ بغداد لعل طريف الاغظمي (ص ١١٥) .

بغداد . وبعد أن شهد نحو الخمسين رجلا من العدول في وقفها ، وأبرزت الوثائق الرسمية ، ثبت لدى المحكمة انها من أوقاف سليمان باشا الوزير على مدرسته . فحكم القاضي ببغداد - وهو حينذاك محمد عصم بك - بردها وفقا بشهادة التواتر والوقفات ، وذلك في ٣ شهر ربيع الآخر ١٣٢٩ هـ . ثم ارسل اعلام الحكم الى الاستانة ليصدقه شيخ الاسلام ، ولكن بعض الايدي أخفته ، فظل أمره نسيا منسيا (٢٠٠) .

وفي سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) زار المدرسة المستنصرية ، جلالة المغفور له الملك فيصل الاول ، فأقيم له فيها حفلة ألقى فيها جماعة من الشعراء القصائد ، منهم جميل صدقي الزهاوي . وقد لهجت الصحف المحلية بهذا الاحتفال المهيب ، مؤمنة احياء هذا المعهد العلمي القديم . هذا ، والمدرسة المستنصرية ، ما زالت حتى كتابة هذا المقال ، بيد « دائرة الكمرک » والامل معقود أن تسلمها مديرية الآثار القديمة العامة بعد أشهر قلائل .

وفي سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) ، اضطرت وزارة الاوقاف الى مطالبة وزارة المالية بدل استئجار المستنصرية أو تسليمها اليها . فتمتعت المالية عن ذلك ، مدعية ان وزارة المالية التركية قد اشترتها لديوان الكمارك منذ عهد بعيد ، وانها ملك لها ! فشرعت الاوقاف بتجديد الدعوى السابقة ، وبعد مرافعات بين الوزارتين في المحكمة الشرعية ببغداد ، شهد بوقفها جماعة كبيرة من ثقات الرجال ، وأبرزت الوثائق الرسمية . ولكن دعوى الاوقاف ردت . فميزت الاوقاف دعواها ، فأحيلت على محكمة سامراء الشرعية ، فحكمت ببا للاوقاف ، وهي ما زالت بيدها الى الآن (٢٠١) .

١٨ - ترميم المستنصرية وإصلاحها وصيانتها

بلغ الدمار في بناء هذه المدرسة حدا يدعو الى القلق والاسف الشديدين . فمن يزورها اليوم ويتفقد بقاياها ، يملكه الاسى لما أصاب هذا الاثر العجيب النفيس من اهمال شنيع وعدم اكرات بقيته التاريخية .

ومن الواجب ، المبادرة الى ائتمال هذا الاثر من يد الفناء ، والعمل على اصلاحه وترميمه بوجه يكفل له البقاء مدة طويلة .

(٢٠٠) مختصر تاريخ بغداد (ص ١١٥) .

(٢٠١) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٩) ، ومختصر تاريخ بغداد (ص ١١٦) ، والمدرسة المستنصرية

لناجي معروف (ص ٦٣) .

وعندنا ان أهم ما يجب صنعه في اصلاح المستنصرية وترميمها ، بعد أن تخليها دائرة الكمرک ،
تتخصر في الامور الآتی ذکرها :

أولا : تنظيف صحن المدرسة وأواوينها وبوتها وغرفها وقاعاتها وسائر المباني فيها ، من جميع
الايوساخ والأتربة التي تراکمت في كل مكان منها .

ثانيا : رفع السقوف المحدثه فوق صحن المدرسة .

ثالثا : هدم جميع الجدران والمباني المستحدثه في المدرسة .

رابعا : صيانة الجدران والحنايا والعقود المتصدعة .

خامسا : ترميم الزخارف المتقلقة واكمال الناقص منها على قدر الامکان .

سادسا : قلع طبقات الجص التي تغطي بعض الكتابات والزخارف ، لتبدو بشكلها الاصلی .

سابعا : فتح باب المدرسة الشارع على سوق الهرج ، وألجد في امتلاك الحوانيت التي تصاقبه
بعمه ويسرة ، ثم هدمها ، لانها لم تكن يوم بناء المدرسة ، فهي من المباني المحدثه التي يجب
ازالتها عنها .

ثامنا : العمل على انشاء ساحة بين يدي باب المدرسة ، تتناسب وقيمة هذا البنيان .
تاسعا : اكمال بعض الاقسام المنهدمه من البناء ، اعتمادا على ما هو باق من نظائرها ، ليعود
منظر المدرسة الى شكله الاصلی على قدر الامکان .

انا نعتقد ان القيام بهذه الاعمال ، ليس من الامور الهينة ، فانها تتطلب نفقات طائلة ، ووقتا
مديدا ، وجهدا بالغا . ولكن كل ذلك يهون اذا ما قيس بنفاسه هذا الاثر الذي سيصبح من مفاخر
العراق التاريخية ، فيسر به من يشاهده ، سواء أكان من أبناء هذه البلاد أم من الاجانب .

وما أجمل ان تتخذ هذه البناية ، بعد الفراغ من اصلاحها ، متحفا للآثار أو خزانه للكتب!

١٩ - ختام البحث

ظلت المستنصرية دهرا طويلا ، تثن لاتخاذها لغير ما بنيت من أجله . فبعد ان كانت نبراسا
للعلم ، وموردا لطلابه ، عصفت بها الاحداث ، وطوحت بها الاقدار ، وتداولتها الايدي فحولتها من
حال الى احوال ، وجعلت منها معتصما لجيش من العصابات ، ثم خانا ، ثم دارا للمكس ، بالوجه الذي
فصلناه في مجرى بحثنا . وهي في جميع هذه التقلبات كانت في حال يرثى لها منها . فلم يكن
يلتفت الى قيمتها الآثارية ، ولا الى الغرض الذي انشئت له . فأدى ذلك الى اندراس اقسام منها ،

وتشعت غيرها ، حتى صارت اليوم ، وهي كما يراها الرائي ، صورة شاحبة هزيلة لتلك الغادة الحسنة التي أظن المؤرخون في وصفها ، وتقنى الشعراء بجمالها !

ولئن مر بالمدرسة المستنصرية هذا الدور الكئيب المظلم الذي قضى على كثير من محاسنها ، ان أجل هذا الدور قد كاد ينقضي ، فالحكومة العراقية ، رأيت بعد انعام النظر تسليم هذا الاثر العباسي الجليل الى خير من يعنى به ، ويلم شعثه ، ويصون ما تبقى منه ، ويحافظ عليه محافظة الام الرؤوم على ولدها . انها رأيت تسليمه الى « مديرية الآثار القديمة العامة » . وهذه المديرية ستستفرغ جهدها في المحافظة على هذا الاثر الشاخص ، وتستعمل ما في وسعها لاعادته الى بعض ما كان عليه أيام مجده . وهي لعمري أهل لتحمل مثل هذا العبء الكبير ، خاصة بعد أن سبق لها احيائها بعض المخلفات الاسلامية في العراق وصيانتها من عوادي الزمان . وليس « القصر العباسي » في قلعة بغداد ، و « الباب الوسطاني » ، و « خان مرجان » ، و « منارة جامع الخلفاء » في سوق الغزل ، وغير ذلك بعيدة عن أنظار القراء ببغداد . ففي وسع كل منهم ان يزور هذه البقايا ، ليرى بعينه ويلمس بيده الجهد البالغ في احياء معالم هذه الآثار وصونها من عبث الدهر .

وسياتي يوم ، ونرجو ألا يكون بعيدا ، نرى فيه المستنصرية قد بعثت فيها العناية أنوارا من سابق رونقها ، وأعادت اليها بعض جمالها ، فتبقى مفخرة الاجيال التي يعتز بها أبناء اليوم ، وبهاى بها أبناء الغد .